

نبيه شعار

موال وفيقة

نبيه شعار

مـوال وفيقـة

قصص قصيرة

من منشورات اتحاد الكتّاب العرب

2000

البريد الالكتروني:
E-mail :unecriv@net.sy
aru@net.sy

موقع اتحاد الكتّاب العرب على شبكة الإنترنت

www.awu-dam.com

تصميم الغلاف للفنانة: جاويدا جرعتلي



الإهــداء

قصص المجموعة مهداة إلى
السيدة هالة الزين
زوجتـي
التـي ألـهمتنـي الشعر ثم أعانتنـي فكتبت القصة

■■

عديله

أنت وحيد في هذه الفلاة. السيارة ليست رفيقاً. آن لك أن تعرف أن الحديد عدو الإنسان. الحديد إذا انفرد بك قتلك.. الأصوات والإيقاعات التي تتسرب من الراديو، أكثر جفافاً من يد حطاب عجوز. إنها صمَّاء، وإن بدت لك ناطقة وطرية، فقد اجتاحتك بمكر شديد. احتلتك بمباغتة كالفرح الذي يعوم في مدى حزين.. ..

أيها المسافر وحدك في البهجة الصحراوية.. إن الهمَّ يحتويك مُدلهَّماً وطاغياً وأثيراً. فتتقدم، وليست لك القدرة على إلغاء اصطدام الأرض بالفضاء عند الأفق البعيد، فكلما اقتربت منه.. بَعُد.

أنت ما تزال سعيداً، أليس كذلك؟.. حسناً زِدْ إذن من قسوة مشط القدم على السطح المطاطي لِدوَّاسة البنزين. ستنهب السيارة الأرض بك نهب الحريق. ليس المطاط وحده ما تدوس عليه. إن تحت المطاط حديداً، فترفَّقْ.. صلب هو الحديد، وإذا انفرد بك قتلك.

أراك تُبطئ.. هل خوفَ الحديد، أم لتتملَّى هذا المشهد الذي لا يتكرر إلا لماماً، كما تقول؟.. إنه لا يتكرر –وكثيراً- إلا هنا. فهو عادي مع تلاطم الرمل

والحصـــى والـــريح والصرصـــر والشـــجر الإيهـــامي الأصلع. فأن ينقضَّ جارح على جيفة، لأمر عادي هنـا. إنمـا لا تسـتغرب إذا عرفـت بـأن للجـوارح غيـر طيِّبـة الطويِّةِ وَلَعاً بالانقضـاض علـى الحيوانـات الحيـة أيضـاً وعلى السيارات.

هـا أنـت اقتربـت. صـار المنظـر أكثـر اتضـاحاً. الجارح أخذ البطين الأيسر من قلب الجيفة وطار.

لا تحسب أنـك أفزعتـه فطـار.. هـا هو ذا يعلو مـن الشمال الصافي كعينيْ عديلة، إلى الغرب العَكِر.

لقد عـاد. مـاذا ألمَّ بك؟؟.. مـا هذا القرعُ بالصدر، الـوقْرُ بـالأذنين، الارتجـاف بأصـابع القدمين؟. ربمـا أن هـذا هـو الضـعف الإنسـاني الـذي لـم يتحـدث عنــه (مالرو).. اعلمْ إذن أن الجارح هو الأذكى.. إنه يتعامل مـع السـيارة كمـا لـو كانـت جيفـة – لعلـه يتعامـل كـذلك معك أيضاً-، لكنه أحس بالخطأ، فابتَعَد.

دع الجـارح الآن وواصـلْ رحلـة عودتـك الشـفافة وبحثك المغري بالحنان إلى مجهول لا تريد أن تسميَهُ كـذلك.. هـل تجـرؤ علـى تسـميته علـى هـذا النحـو الأصدق؟. أنت لا تجرؤ.. وأيضاً أنت واهمٌ إذا حسبت الزوجة جالسة على كرسي انتظار مذهَّب أو مزركش. إن حلمـك بكـأس حليـب دافـئ هو الآخـر وهـم، فضـرع العنـزة التـي تركتهـا عنـد بـاب الـدار يـوم سـافرت، كفَّ عن الإدرار ثـم جفَّ تمامـاً.. بـل إن العنـزة تـدور حـول نفسها منذ أن سافرت. ويوم شرعت بـالعودة جفَّت هـي الأخرى، كما جفَّت ورقة اليانصيب التي أبقيتها لعديلـة، ألوانهـا اللماعـة كعينـيْ فهـد جـريح بهتـت أولاً، وبهتـت عديلة نفسها؛ إلا أنها لم تجفَّ كلها بَعْدُ... أمامك قطيع. انظـرْ. ألا تـرى عشـرات الضـروع وقـد غـدا كـل اثنـين منهـا لوحين من خشب متلاصقين صقيلين ويهتزَّان.

ها أنت عند باب الدار. لماذا تُشيح وجهك؟ ما بال وجهك صار أشبه بوجه تيْس آسيوي مكسور الساقين؟ لماذا تهرول مبتعداً مقترباً من ساحة الدار؟.. أما كنت تريد الدخول لتعبَّ الحليب من كفيْ عديلة؟.. حسناً. أدخل. أحكِم إغلاق الباب. أرْتِجْهُ ثم تابع في الدهليز الطويل. الدهليز ليس مظلماً إلى الحدِّ الذي تتصوَّر. حدقتا عينيك هما المُجهدتان.. إن النور يغمر المكان كله، أنت الذي لا تراه، لأنه نور أسود –النور نفسه الذي أشعلت يوم الرحيل-..

لقد وصلت إلى آخر الدهليز. الأُكرة في متناول قبضتك. أدِرْها. أدرها، افتحْ. ليس في الداخل كلب.. تخلَّص من لعنة تصوراتك. كان لك قلب من صوان، ما لك الآن؟ ماذا بك؟.. ليس لك غير الكُرة. أدِرْها. أدِرْها بقوة وبثبات. (شيكسبير) قال: التردد ضعف لا يليق بالرجال. إن جرأتك في داخلك، وما تسمعه ليس عواء كلب. أنت تسمع صوتك.

عديلة، في الداخل تنتظر، والكأس بين راحتيها. لكنها لن تسقيك الحليب، فإنه لم يعُد ثمَّة من حليب. تريدك أن تملأه أنت لها بالمُجَفَّف.

فأنت من أرسل عصير البرتقال المجفف؛ صاحبك الذي أحضره، دق الباب وانتظر حتى تسلَّمته، تسلمت الزجاجة منه، فانصرف.. والزجاجة الآن في الداخل فوق منضدة التلفزيون.. أما التلفزيون فقد أبْعِد بعيداً، لأن عديلة كفَّت عن الحاجة لترى نفسها فيه أو تراك. وعديلة لم تشرب من العصير المجفف، عوَّدتْ نفسَها شراباً آخر موبقاً واحتفظت بالزجاجة ملأى لتشرب من المجفف معك.. ليس عليك سوى أن تُدير غطاء الزجاجة إلى أي اتجاه أردت فتنفتح بيَّارة البرتقال. ثم

أمل الزجاجة –قليلاً أو كثيراً- يندلق الشراب بارداً كالزمهرير، حلواً كما المتعة والارتواء. سوف ترتويان. لسانك الذي أصبح له قوام مبرد خشب صَدِئٍ، سيعود أملس وطرياً كخدود الأطفال النائمين، كقلوبِ الخِراف المذبوحة حديثاً، وإنما لن يكون له دفؤها...

هل ستُدير الأُكرة؟ إذا لم تفعل أدرتُها أنا لا تقل إنك لا تراني. قل إنك لا تريد أن تراني.. .. أَدِرْ.. أَدِر الأُكْرَة..

دارت الأُكْرة.

كل شيء حولك دار ثم ارتجّ.

.. صوتٌ أشبه بالهزيم، ملأ الأرجاء جميعاً، لكنه في واقع الأمر لم يملأ شيئاً البتَّة.

أنت الآن نخلة. نخلة تهتزُّ كأنْ لا واحة لها، ولا رُطَب فيها كي تتباهى.

أنت مستلب الخاطر والجَنان. يحتويك ريش كثير كاد أن يملأ الغرفة ولكي تُبعِده عنك، طوَّحت في فضاء الغرفة يديك وساقيك وجسدك كله، لكنه كلما أمعنت، كلما تحرك مزيد من الهواء فازداد الريش المتطاير عدداً وكثافة. ألا تدري بأنك لو سكنْتَ لسَكَنَ الريش.. أنت تقول يا الله كم يكون الإنسان غبياً في بعض الأحيان، ولا تتذكر (نيوتن).. حسناً. واصل البحث إذن عن جدار تلوذ به وتحتمي..

لم تجدْ فردَّدتْ دون صوت: لعلّي أخطأت البيت.

إنك تزمع أن تنادي (يا عديله)، وقد آن لك أن تكف عن الأفكار الحمقاء. إن صوتك إذا فعلت سيبعث في هواء الغرفة حافزاً يسهم في تطاير المزيد من الريش، وربما عطَّل قانون الجاذبية من أساسه.

فالأفضل أن تستكين جالساً في مكانك، وأن تضم ذراعيك إلى صدرك كيفما اتفق وبهدوء بالغ كالضراعة ما استطعت..

تَبَصّرِ الريشَ من مكمنك.. إنه يتساقط في اتئاد محدثاً جلبةً رفيقة كسلحفاة تبيْض..

صممْ..

ارسم دقائق وثواني الحوار الصاخب الذي تنوي إدارته مع الزوجة عديلة أتحسب أنها خزَّنت الريش كي لا تراها ولا ترى الكلب. الريش ما يزال يلهو غير آبهٍ بشيء في بيداء غرفة متعتكما الوحيدة..

تعِبٌ أنت، فارخِ جفنيك ونَمْ.

غفوت ساعة؟ ربما أكثر، ربما أقل.. ها هي معالم الغرفة شرعت تتضح رويداً رويداً. إنها غرفة متعتكما الوحيدة. هببت واقفاً. حشوت رئتيك الإثنتين بكثير من هواء الغرفة. الهواء بكْر، فلن يساعدك لترفع صوتك بالنداء عليها.. هممت بالقول. بدأت بكلمة (يا). ثم سكتَّ وسكنت.

كان النسر الكبير الهرم يتقدم منك بكأس من عصير البرتقال المجفف. الكأس أصغر من الغرفة بقليل. فزِعتَ فزعاً عظيماً. ارْتُجَّ عليك كأنك صُعقت. أحسست بالدوار. الغرفة كلها تدور. أنت أيضاً تدور. وروحك يدور.. غطَّاك النسر كلَّك. غَطَّكَ. ضمَّك تحت جناحين قويين من حديد وإسفلت. أحسست أن روحك تخرج من تحت أظافر قدميك. إن الروح قُدْس الأقداس، ولذا فإنه يخرج من الرأس. فلا تبتئس.

لك الآن أن تصرخ بحثاً عن عديلة.. .. هكذا: عديـ.. .. لاه.. .. عديله. بعد ذلك طأطئ وقدِّمْ رأسك

المصطخب بالأفكار للنسر الكبير الهرم. وقل له: عديلة حبي. عديلة محياي ومماتي.. سيُطْلِقكَ النسر.

إن النسر أذكى.

■■■

السكان في مظلة الزهور، لم يكونوا يحبون اسم بلدتهم هذا. يتمنون لو سُميَّت: "المظلة" أو "الزهور"؛ لا أن يجمعَ الكلمتين مسمىً واحد. والطريف في الأمر أن البلدة ليس فيها زهور إطلاقاً، فهي قمة جبل تتوزعه بدون انتظام أشجار عتيَّات من الصنوبر والزعتر والبُطْم والسنديان؛ وجدها السكان هكذا في زمن لا يُعرَف متى، فتوازعوها ولم يضفْ أحدٌ منهم شجرة واحدة عليها منذ ذلك الحين. إلاَ الصبَّار الذي غرس أمام بيته شجرة جوز حدث أن قاومت واستمرت، لم تثمر أبداً. إلا أنها قد صارت من الضخامة حجماً جعلها معلماً من معالم البلدة يُستدل بها فتهدي.. وفي البلدة الكثير من أسماء الزهور مُطْلَقَة على البنات؛ بل إن جميع بناتها كانت أسماؤهن أسماءَ زهور؛ وإذا أعجز أحد تسميةَ ابنةٍ له باسم زهرة، كان يلجأ إلى إضافة اسم زهرة ما إلىً شيء ما، من قبيل: عوسجة الجبل أو وردة البراري أو فلّة الوادي، أو ما إلى ذلك من التراكيب التي تقوم على مزج الزهر بالأرض.. وقليلٌ من الزهور حدث أن سُمِّيَ بها بعض المواليد الصبيان تحبباً أو نَذْراً لأن

الحمْلِ به تم بعد تمنٍّ وانتظار مديدين، ولكنهم إذ يغدون شباباً ورجالاً تصيِّر أسماؤهم بالنسبة للبعض منهم مدعاة خجل. فهل يعقل أن يقول أحدٌ لأحدٍ إن اسمي نرجسٌ أو ليلكٌ مثلاً؟ لذلك تجدهم يعزفون عن تقديم أنفسهم للآخرين، رغم معرفتهم بأن في هذا شيئاً من عدم اللباقة. ولكن كلاً من السكان كان يتباهى بأن سمَّى ابنته باسم الزهرة الأكثر ندرة وجمالاً.

والصبّار الذي طبقت شهرته الآفاق بصيدة للدببة والذئاب وشتى الوحوش في الأحراش الفطرية شتاءً، والحجل والحباري في السهول البعيدة شيئاً ما ربيعاً وصيفاً.. كانت طباعه غير طباع ناس البلدة كلِّهم. فلم يكن يأبه لأي إسم حملته البلدة؛ ولم يكن يأمل البتة أن تلد زوجته "ريحانة" ابنةً قطُّ، لأسباب لديه، وليس فقط لأن الزهور جميعاً قد سميّ بها وتكررت التسمية مراراً وتكراراً، وليس لكي لا يضطر لإيجاد اسم لا يروق له أو لا يروق للأقارب والجوار، أما وقد وضعتها أنثى فلا حول ولا قوة إلا بالله.

جهد الصبّار ليجد لابنته الوليدة اسماً غير مسبوق، فلما عجز، قرر أن يسميها: "الفراشة" لمفهوم خاص لديه عن الدور الذي تؤديه الفراشة في الطبيعة رغم ما في مثل هذه التسمية من خرقٍ واضح للتقاليد، ومن تجاوز قد لا يكون مستحباً.. بلْ إن العُجْز الأقارب – الأقربين والأبعدين- وجدوا فعلته مدعاةَ تطيُّر، وبعضهم لم يُخفِ تشاؤمه.. فالفراشة هي آكلة الزهور.

-2-

الصبّار كان معتاداً على مغادرة بيته في الظلام والمشي فيه لساعات ليلية طويلة، ومعتاداً على البرد أيضاً. ولكن الليلة التي وُلِدت فيها "الفراشة" كانت ليلةً

شديدة البرودة، والثلج كثيف لم ينقطع منذ الأمس، فكيف لك أن تذهب يا أبا فَراشة، رجائي لك ألا تذهب اليوم، ففي هذا البرد لا حجل ولا درّاجٌ ولا سخَّامٌ أسود.. فإلى أين أنت ماضٍ يا أبا الأولاد؟..

هذا ما قالته ريحانة وقد باشر الاستعداد لرحلة الصيد، بعد أن انفض جمع النسوة اللائي كن متحلقات حول فِراش الولادة، بعد أن طَعِمَنْ من سُفرَة مريم المعتادة واغتظْن من الاسم الذي أُطلِق على المولودة وعبَّرت بعضهن عن ذلك وعن امتعاض كبير.. ولكنه صمَّ الأذنين معاً، ولم يُعِرْ ما قالت ريحانة أي انتباه أو تصدر عنه إجابة تريح قلب المرأة الوَجِل والأبناء الخائفين عليه من شيءٍ ما، المندهشين من إصراره؛ حتى إن زهر الرمان – الإبن البكر- تريث علَّ الأب يخلع نعليه وينام، قبل أن يقول له: إنك لن تستدل على الذئاب في ليلة ظلماء كهذه يا أبي، لا بأس من امتطاء الليل القارس والخوض بالثلوج، وإنما في ليلةٍ بدر كي تسمع العواء فتتبعه وتصوِّب فتصيب.

اكتفى الصبَّار بأن حدَّق في وجه ابنه ذي الأعوام السبع عشرة، وامتطى جزمته الجلدية وتقلَّد بندقيَّته العثمنليّة، ثم صفق الباب ومضى كأنه سهم يريد أن يتخلص من قوسه كيفما اتفق.

بلى، كان الأب عنيداً عناد الصبار نفسه.. حقاً إن لكل مسمى نصيباً من اسمه.

-3-

خوَّض الصبَّار في كثافة الثلوج المتراكمة من آخر الهزيع الأول إلى مطلع الفجر، لم يسمع سوى دحرجة لصخرة بين حين وآخر إذا أثقلها الثلج ولم تكن متشبثةً التشبُّث الكافي بجذرها، وسوى عواءٍ تسرق صداه

الوديان القريبة والبعيدة ولا تعيده، هو عواء الريح الجبلية..

أحسَّ بكلل أخذ يتمشى في قدميه المُجهدتين. لقد كف تَهطالِ الثلج وتدحرجُ الصخور الطِفلة وبدأ عواء الريح بالخفوت.. ها هو ذا النهار قد ركب السحائب التي في الأفق صابغاً إياها بالبرتقالِ فالليمون فالرمان فبقلوب الجوز البيضاء، إلا سحابةً في الأفق البعيد تأبَّتْ، فظلت مصطبغة بلون البُطْم الداكن تتحدى الشمس الهزيلة وتنذر بسكْب غير محدود من المطر.

فكَّر الصبَّار بما سيكون عليه حاله لو استمرت تلك الغيمة في تحديها للنهار وفتحت صنابيرها. سيغدو نقيعاً كلُّه، وسيتسرب الماء إلى ملابسه الداخلية وتمتلئ الجزمة فيصبح أكثر وزناً، فكيف له من ثَمَّ أن يعدو ويطارد بكفاءته المعتادة.. لابد من فعلٍ ما يجنبه ذلك، ولا صواب أكثر من اللجوء إلى كهفٍ أو مغارة.. أين أنتَ أيها الكهف وأين أنتِ أيتها المغارة..؟

إن الصبار لا يرى في مدى بصره من تحت شجرة السنديان الجالس في حضن ظلها الحنون الذي يفرش شبه دائرة كاملة وسيعة أقل تَنْدِيَةً، أية فجوة، كي يفترض أنها تتقدم كهفاً أو مغارةً تحسُّباً لتطفل عابث كما عَهِدَ في تَقَدُّمِ أمهات الدرَّاج لأفراخها، والبطة الأكبر لرُهط البطِّ الطائر عندما تستريح في السهول التي تلي هذه الأصقاع، فتُطلِع لها الأرض من قلوبها أحلى الديدان والطحالب الوردية، تلهو بها وتعتاش، حتى ليكاد المرء يقطع بأن بين تلك السهول والبط علاقةَ عشق وايثار من نوع محبب، جميل وغريب.

تراوحت في ذهن الصبار، تفاعلت داخله، ثلةٌ من الأفكار كأنها جُندٌ مُحتشدٌ يوشك أن ينقض عليه فيقتله.. رفع عينيه إلى أغصان الشجرة. حكَّ رقبته تحت الذقن.

دغدغ تفاحة آدم. عاد فمشَّط لحيته الشهباء بأصابعه، ثم هبط بكل كفه إلى البطن. ضغط معدته. أحس بخواء كبير ذكَّره بامتداد دهليز عظيم رآه ذات رحلة من رحلات صيده في بطن جبل، وكانت تعلوه كالأعلام جذوعٌ لا أغصان لها ولا أوراق. صمم أن يأكل من عشب نامٍ زاهٍ بإضاءاتٍ ترسلها من أعاليه حبيباتٌ باقياتٌ من ثلجٍ اضمحلَ أكثرُه، فصارت مصابيح ممنعةً في الصغر، ومع ذلك فإنَّها تتلألأ.

أبقى على كفه اليسرى ممسكة بالبندقية المعلقة بكتفه، لاحظ أن فُوَّهَتها متجهةً إلى الأعلى فأمالها باتجاه الأسفل- فذلك أدعى لحفظها إمَّا همى مطر-، وقبض بجُماع كفه الأيمن على الأرض السكرى بالندى وعشبها، فاقتلع قبضة منه وعلا بها باتجاه فمه. ما كاد يُلقمها الفمَ الجائعَ حتى دوَّى من خلفه عواء ذئب كان ما يزال يمضغ شيئاً يسيل منه بعض الدم.. ألقى ما قبض من العشب واستدار، وأدار بحركة واحدة فوَّهة البندقية باتجاه الذئب الشبع، لكن الذئب هو الآخر استدار في الآن ذاته، وعَدَا فغاب بين الأحراش الداكنة دكَانَةَ الغيمة التي تحدَّت الشمس وأصرت على البقاء بلونها البُطْمي مُهدِدةً بمطر كثير.. فأحس بالاحتقار. وأقسم إنها ذئبة وليست ذئباً.

ألا أيتها الذئبة النتنة الجرباء: أيَّ طريدة كنت تلوكين؟. طريدتي أنت فاذهبي حيث شئت، سأنالك قبل أن تهضمي ما افترست.

تقدم من الأحراش بهدوء جِرْو وليد. حيث لم يسبق له أن اختبر هذه الأحراش قبلاً. حدق بكثافة الدَغل. لم يلحظ حركة. تقدم أكثر وأكثر. لاح له في العمق مُنْبَسَط وسطح يلمع. مضى إليه. اقترب منه. كانت

الدوائر على صفحة الماء تتلو كلَّ واحدة منها واحدةٌ ثانيةٌ، فيستمر الاتساع ويتكرر في توالٍ غير منقطع. تخيَّر حافة من جوانب البحيرة تمكنه من رؤية المشهد كله، واقتعدها.

كانت تلك، هي المرة الأولى التي يرى فيها ذئباً لا يهاجم. لِمَ فرَّ الذئب والصبَّار لم يكد أن يلتفت؟ أيعقل أن يكون قد خاف؟ ما الذي في الإنسان يُخيف الذئاب الجبلية؟ ألا إن أمرك عجيبٌ أيتها الوحوش.

فجأة طفت على سطح أفكاره مسألة الجوع. حشَّ شيئاً من عشب نديّ. همَّ بالتهامه. أبصرَ على الجانب الآخر من الماء عينين حمراوين تنظران ثم تميلان باتجاه الماء، وقد امتد من الوجه الأشعر لسانٌ ورديٌّ أخذ يلعق في اطمئنان وثقة. ارتفع الرأس ثم عاد فانكبَّ على الماء، يلعق ويلعق..

إذ ذاك كان الصبّار قد مضغ ما في فمه، فاتخذ لنفسه وضعية الصياد الواثق. انبطح على العشب والطين، صوب البندقية باتجاه واسط الرأس فوق سطح الماء بين العينين تماماً. أحس بانتشاء الظَفَر المقترب. حبس أنفاسه. تبسَّم. عصر الزناد. أعاد عصر الزناد. تأبَّت البندقية عن الإطلاق. قطّب حاجبيه. لعنَ منْ لعن. كرَّر المحاولة. بقيت الطلقة في حجرتها تغطّ بسُباتها. حاول أخرى، فانطلقت الرصاصة؛ ألحقها ثانية وثالثة ورابعة.. افتضَّ الدوي عذريّة المكان ولم يفتض الرأس الأشعر. رفع صوته بسباب مألوف وسباب غير مألوف.. نشب بين العيون حوار: حوارٌ غير آبهٍ من جانب وعدوانيٌّ من الجانب الثاني. ظل الذئب ينظر إليه لا مبالياً ويصنع لسانه الوردي دوائر إضافية على سطح الماء، مدة من الوقت.. ثم أدار ظهره ببلادة وهزَّ ذيلاً بطول قامة صبي فحدَّق بعيني

الصبّار، ثم مشى متّئداً كأنه قد صمَّم أمراً في نفسه، دون أن يعير بالاً لتلاحق شتائم الصبّار الذي كان صدره يعلو وينخفض مُستفزاً، ويحس بقهر كبير. إنها المرة الأولى التي يُفلت منه ذئب كامل على مبعدة أمتار، وهو الذي ينال حتى الدوري ولو كان على مسافة مئة أو يزيد. تلفّت حواليْه كمَنْ خشي أن يكون أحدٌ قد رآه. انتابه شعور بالإحباط، وعاوده الإحساس بالاحتقار.. أيعقل أن التصويب لم يكن مُحكماً؟.. أيعقل؟..

أيقن أن الماء شكل عائقاً. لو لم يكن هناك ماءٌ لقفز من مكانه كالوحش على الوحش فأنشب ليس الأظافر فحسب، بل أصابع بأسرها..

تباً للماء وما فعل.. لا. ليس لأحدٍ أن يسبَّ الماء؛ فمن الماء كلُّ شيء حي.. آه لو أن بعض هذه البحيرة فيك يا مظلة الزهور لاستحقيتِ الاسم بجدارة. ولكن، أمن الممكن استنباتُ الزهور من بطون الصخور؟.. بلى، يمكن هذا.. فما على المرء إلا أن يضيف جهداً وفكراً إلى ما هو مُتَاحٌ، فيصبح غير الممكن ممكناً وفي المتناوَل.. لكنكم يا أهل مظلة الزهور تقضون أعماركم جيلاً في إثر جيل ترقبون المطر، فإذا هطل كانت لكم أرزاق تعتاشون بها، وإذا زادت وفرة محاصيل الشجر الذي لم تزرعوا؛ طلَّقتم، أوتزاوجتم زيجات ثانية، أو اعتديتم، أو هبطتم المدينة فأتَحَتْم للعاهرات والقوادين أن يسرقوكم، ثم تعودون لمظلة الزهور تروون الأكاذيب واهمين بأنكم دفعتم ثمن ما استمتعتم، وكأن المُتَعَ –حتى وإن صحَّت- يجب أن تكون المصاري مقابلها.. أما إذا شحَّ المطر وقلَّت المحاصيل، لم تفعلوا أكثر من أن تصلّوا صلاة الاستسقاء، وتطأطئوا الرؤوس في رواحكم وغدوّكم، متجهمين، أذلاءَ من

ذنب غيرِ معروف وغير منظور وغير قابل للغفران في الآن نفسه.

حدّثَ الصبّار نفسه هكذا قبل أن يغط بنوم عميق يعتوره شخير كأنه الخوار..

[4]

حين صحا، أبصر الظلام يلفه من الجوانب كلها وأوراق الحرش يُسمع لها حفيف يبعث في النفس رهبة ويدعوها إلى الخضوع أو إلى التمرد..

أحس بقدر من الشوق إلى الفراشة. استرجع بكاءها. واسترجع رجاء ريحانه ونصيحة زهر الرمان.. طرد جميع ذلك من مخيلته. صمم أن يقعي في مكمنه يرتقب عودة الذئبة إلى الماء. أقسم ألا يعود إلا وذيلُها معه. لكن النعاس غلبه فعاد إليه. ما كاد يغفو حتى عوى، الصبّار نفسُهُ عوى. في الآن ذاته، غاب كالبرق داخل الدغل الداكن، ذئب مُستثار عَلِقَ بين فكيه الضاريين قبضةُ لحمٍ وعظمٍ.

[5]

في تلك الآونة من الليل كانت ريحانة وزهر الرمان يتحادثان، بينما الحطب يأكل نفسه مُحْمَرّاً جَمْراً، والفراشة تغطّ في نومها المتواصل كأنها لا تريد أن تستمع إلى سفاسف ما يقولون. قال الفتى: أبي لن يعود الليلة.

قالت الأم: أبوك لن يعود إلا ومعه دب أو ذئب أو حتى ضبع، في جميع الأحوال سيعود، إنه الآن مجرد مستاء لأن من جاء هو الفراشة وليس الدبور، أبوك يحب الدبابير يا زهر الرمان.. وأنتِ أيضاً تحبينها، كنتِ كثيراً ما تقولين: الذكر أبقى وأرقى من الأنثى..

قـال ذلـك زهـر الرمـان فسـكتت ريحانـة. مالـت إلـى الوليـدة. حشـرت فـي الفـم الصـغير ثـديَها المكتنـز، واستسلمت لنوم لذيذ. غطى النار زهر الرمان.. فَمِنْ عاداتهم الاقتصادُ في الحطب وفي الجمر، كما هم في كل شأن آخر.

كان الليل قد هجع بانتظار صباح جديد يوشك أن يفضح كل شيء تدثّر بأي شيء، حين سُمِعَ خارج البيوت المغلقة على أسرارها صوتُ امرئ كأنه أخرسُ يستجير، أو مَنْ لم يكن راغباً ولا قادراً على قول كلمة واحدة تنِمّ عمّن هو.

سمعتْ ريحانـةُ الصوتَ فيما شفاه البنت الرقيقة ممسكة بتشبث بالصدر الثري حليباً وحياةً. نحَّتِ ابنة اليومين. نشبت. تعثّرتْ. أمسكت بجذع من شجرة الجوز كان انتوى الصبّار أن يقصّه. رفعت مزلاج الخشب المتآكل.. أصبح أكثر من نصف الرجل في الداخل، وأصبحت بندقيته على العتبة أقرب إلى الخارج. همستْ الريحانة: ساعدْني كي لا يفيق الأولاد. قال: احملي البندقية وأمسكيني من الناحية الأخرى، فإن ذئبة أكلت كفي.. وأين ذيلها؟ ألم تَصدْها؟.. أجاب الصبّار: بلى يا ريحانة القلب، وسَكَتْ. توكأ عليها. جر جسده وهو ساكت.

تذكّرتْ ريحانة أن الفرّاشَ يأكل الزهور.

وللمرة الثالثة أحسّ الصبّار باحتقار للنفس يعتصره اعتصاراً.

■■■

كروان

[1]

تلفتت كروان يساراً قليلاً يميناً قليلاً ثم استدارت باتجاه الصوت الأغنّ وقد عبث بوقارها المهذب الذي اعتاده الحي كله، وامتطى كبريائها في تحدّ فظّ.. حدّقت في الوجه اليافع، تمعنت فيه، بحرّت.. ربما إنه راق لها، ربما أعجبها فقط..، لكنها قالت: استح.. يا ابن الشرمو [..]. فالفتى صبّ تغزّله على الموقع الأكثر اختباءً وإخفاءً في جسد أي امرأة.. وتجرأ، بل تواقَحَ وسمّاه.

اكتفت بهذه الشتيمة واستمرت سير الحجل الغرير متجلببة بالسواد.. كان كعب حذائها النحاسي العالي يقرع الرصيف من أولّه حتى آخره.. فيرنّ -ليس الرصيف فحسب- وإنما الشارع كله، ويلبس لرنّته رداء الاشتياق.

[2]

عيّنت كروان في فراغ لامرئي وأذِنت لخيالها أن يرجع عشرين سنة وأكثر.

أبصرت بعين الخيال [بسّام] ذلك الفتى الأشقر في

نظافة بادية ومحسوبة رغم أنه مجرد صبي لدى بائع الخضرة وظيفته أن يتولى توصيل طلبات المنازل.. كان مبتسماً على الدوام، ويرفض على الدوام تناول المكافأة النقدية من يدها الطرية، فتبادله ابتساماً بابتسام، ثم لا تغلق الباب على عجل، إنما بتؤدة متمهلة ورفيقة، كأنها لا تودُّ أن تغلقه.. لم تكن تريد أن تنتهي الابتسامة العذبة..

كان يقول لها: - احفظي مكافأتي لديك. وكانت تحفظها.. تضعها كل مساء تحت وسادتها. وفي الصباح تدسها في محفظتها وتذهبان معاً إلى المدرسة.

لقد امتلكت نقود بسّام كيانها كله.. وكما احتفظت بها سراً بينها وبينه، كذلك احتفظت بابتساماته.. فكانت تدسها في قلبها عند الباب، وما إن يغادر تستخرجها وتلهو معها النهار كله، وتحلُّ بها مسائل الرياضيات العويصة، وتستعين بها على حفظ قصائد الشعر الجاهلي.. غدت وحيدة الصف التي حفظت دون غلطة واحدة، منهاج الشعر الجاهلي كله وخطبة قسِّ بن ساعدة ومقاطع من بخلاء الجاحظ.. مما جعلها موضع العناية الفُضلى لدى مُدَرّسة الأدب العربي، وموضع حسد بعض الزميلات وإعجاب بعضهن الآخر.. وإذا آوت إلى السرير خبأت الابتسامات بين نقوده تحت الوسادة، كي تسترجعها من جديد في الصباح..

ومثلما كانت تزداد النقود مع ازدياد طلبيات الخضار أو الفواكه، فكذلك كانت الابتسامات.

[3]

بعد أشهر، وربما عام.. قال لها بسام: أنت جميلة.. وناولها طبقاً فيه تين وكيساً فيه عنب، وأردف: أجمل من كل فاكهة الدنيا. ثم ابتسم. قالت: أنت أجمل.

وأغلقت الباب بالأناة المعتادة.

[4]

إحدى زميلاتها حدّثتها عن أشياء حميمة تفعلها البنات مع الصبيان في خلوات تتهيأ لهم أو يهيئونها على سطح منزل أو تحت درج، وأنها –كما قالت- ترد الروح. سألتها:

-هل تحبين؟

أجابت:

-وأنتِ، هل أحببت أحداً؟

-أقول لك عن الأشياء الحميمة، ثم تسألينني.. طبعاً أحببت وأحب، ويا لكثرة ومتعة ما فعلناه.. كل مع الآخر.

تمنّت كروان، فشابت وجهها حُمرة حييّة وداعبته تلك الابتسامة.. ودت لو كان مدّ يده إلى خدها يوم أن قال لها أنت جميلة.. وودت لو أنها مدت يدها ورفعت خصلة شعره الشقراء، العابثة أبداً بالجبين الأحبّ، لكانت أحست لبعض لحظةٍ، لحظةً جزءً من الحميمية التي سمعت بها على التوّ.

[5]

الفتى اليافع الذي أسمعها ما أسمعها، عاد فشاغل سمعها بالتغزّل نفسه. لم تتوقف هذه المرة، كما لم تشتمه.. اكتفت بأن نظرت في وجهه. عاودها وجه الفتي صبي الخُضار والفواكه، فاستشعرت قشعريرة خلَجَتها كلها حتى كادت أن تسقط.. ولكن الحجل استمر يمشي.. واستمر اليافع يتبعه، إلا أنه لم يعد يقول شيئاً. ظل وراءها ظلاً من الظلال أشبه بالأليف. ثم حاذاها.. خاف كل شيء فيها من لمسة أو إمساكة لعضد..

-كيف أتصرف إذا فعلها؟ إن الجرأة التي له أمر لا يصدّق. أبْعِدْهُ عني يا رب..

تظاهرت بلا مبالاة متيقظة. مضت وقد حاذاها تماماً. تعمدت ألا تنظر إليه. لكنه كان ينظر وكان يبتسم، بل ويكاد يضحك.. نظر إلى الرصيف الآخر وهمس إني أعتذر، حقاً كنت قليل أدب. وصمت، ثم لوى خطواته فصار على الجانب الآخر من الطريق. لكنه ظل ينظر إليها.. وظل يبتسم.

[6]

تمنت لو أنه ما اعتذر.. لا تدري لماذا هذه الأمنية.. كانت في داخلها مساحة رغبة واشتياق تناديه على استحياء ليسحب اعتذاره، وربما ليعاود قول ما قال. أما الشتيمة فقد كانت من قبيل رد الفعل الإنعكاسي.

[7]

-ما الذي حدث جراء ما قاله؟ لا شيء.. إنه شاب واشتهى، لم يمكنه عمره من إبداء الإعجاب بطريقة أخرى. لقد قذفه عمره باتجاه النهايات. ومن كان في مثل سن يفاعته تعنيه النتائج لا المقدمات.. إن قلت عن نفسي كيف لي أن أتعامل مع فتى يافع، لا يجب أن أقول كيف لفتى يافع أن يتعامل معي.

صمتت برهة لتعاود القول لنفسها:

-ثم ربما إن زوجة أب ربّته فافتقد الأم حتى وجدها في.. إن الحرمان العاطفي يفعل أكثر من هذا. وإن الحرمان العاطفي يفجر المضامين.. والفتى باعتذاره، لم يقصد أن يعتذر، بل عبر عن مقدار ما فعلته لديه، شتيمتي.. لا، أنا ما قسوت. كان يستحق ما

سمع..

[8]

تقصدت أن تنظر إلى الرصيف الآخر وأن تجعله يراها تنظر إليه.. ما كانت تظن أن له الابتسامة التي لبسام. بسام كان عرق ورد والتوى في هاجرة الحرب. عشرون ربيعاً فتياً أكلتها نيران الحرب. لقد أخذ مني ما أخذ بينما أنا داخل النشوة والرضا. بلى، لقد كان فعلاً حميمياً ودافئاً، ومدعاة سعادة لم أقدر على وصفها إطلاقاً.. هل يريد الله بجلال قدرته أن يكرر علي بسام؟ من يدري. والعمر؟ تباً للعمر كيف يحول بيننا وبين صبواتنا.. لا، يجب ألا يحول، فإن نازك الصلحدار جعلت من عمرها جسراً وعبرت عليه إلى ضفتها الثانية.

كان الفتى اليافع يتشاغل بالنظر أماماً، ولكنه أيضاً كان يبتسم.

[9]

في يوم آخر صعقت كروان، رأته واقفاً بالباب كالقدر. قالت:

-ادخل.. لا تفضحنا.. يا لك من جريء.

ابتسم الفتى..

لم يدخل

قال:

-أتيت لأعتذر وجهاً لوجه، فأنت بمقام أمي.

نظر بحنان جم في وجهها الفل. كانت له نظرة جندي مندحر وجريح على سرير في الوطن.

همّ بقبلة عجلى. أسلست له خداً توّرد في اندهاش.

لامست الخدّ شفتان من ندى، وشارب من زغب الدُرّاق

وكَمَنْ فوجئ بجمرةٍ تأكل فمه.. أدار وجهه. وجعل يهبط درجات السلم كأنه مطارد.. كان خائفاً من شيء ما..

بتوءدة كظيمة، تركت كروان الباب، فأوصد الباب نفسه.

■■■

الصوصاني[1] والولد

- مثل هذه الأربعينية ما مرّ منذ خمسين سنة.

- فعلاً يا أبا عبد الجليل. أيضاً لا تنسَ أن الشتوية كلها كانت ظالمة هذه السنة.. لا نزل مطر ولا انخفض سعر لحم.. أعان الله الفقير، ماذا سيأكل.. كل شيء صار أغلى من الذهب.. أخاف يا أبا عبد الجليل، أن تأكل الناس بعضها والعياذ بالله..

- أجارنا الله مما تخبئه لنا الأيام، صار الزمن صعباً يا شيخنا.

- فعلاً فعلاً يا أبا عبد الجليل. أصعب مما كنا نظن. والله أخاف أن يأتي علينا زمان نصبح فيه مثل ما كنا أيام السفر برلك[2] كان الناس يأكلون بعضهم. ليس بعضهم بعضاً، وإنما يأكلون الأموال باطلاً وحراماً، والعياذ بالله.

---

(1) صوصاني: واحد قوم من قضاء صاصون التابع لمدينة تبليس في القوقاز، هاجر كثير منهم إلى حلب في القرن التاسع عشر، وامتهنوا الفِرانة

(2) سَفَربْرلِك: عبارة تركية تعني السفر لمرة واحدة (دون عودة) ويقصد بها الحرب العالمية الأولى، إذ كان الأتراك يذهبون بالشباب العرب إليها، فلا يعودون منها.

- مظبوط يا شيخ.. أنا نفسي سمعت شيئاً من هذا القبيل.

- مظبوط ونصف أيضاً.. تقول إنك سمعت شيئاً من هذا القبيل؟!

إذا أنا قلت شيئاً، إعلم أنه الحق الكامل. إن الحق لا يأتيه الباطل، لا من خلفه ولا من قُدّامه.. فالعسكر يا ابن الحلال، عسكر السلطان- أيّده الله- أكلوا لحم الفطيس، وشربوا بول الدواب. أي نعم.

- نعم يا سيدي، نعم. نفَعَنا الله بك وبعلمك، وأطال عمرك.

.. وصمت الإثنان: الشيخ وعبد الجليل..

والولد الذي كان يُحاذي أباه والشيخ في خطوهما الوئيد تخلف بضع خطوات فأثار أباه.

تساءل كشأنه كل مرة: ما الذي يدعوك أن تُماري الشيخ هكذا في كل ما يقوله، يا أبي؟ ولماذا هو يزجرك إذا حاورته.. بل يزجر كل مَنْ يحاوره؟ حتى إنه لا يأبه ولو كان في المسجد.. يزجر أيّاً كان وفي أيّ مكان.. لا بد لي من يوم أقدر فيه على زجرك، يا شيخ الهمّ..

وتابع حلمه: سأتسلّلُ يوماً إلى دار عمتي وهيبة وأحضر قضيباً من رمانتها أهوي به بين عينيك.. يجب أن تُوقَفَ عند حدّ أيها الهرِم الخرف.. ترى هل أزهر وأثمر الرمان في حوشك يا عمتي؟.. إن لم يكن قد أثمر سأنتظر، سأنتظر حتى إذا طاب، خطفت رمانتين: واحدةٌ ألقيها على عمامتك ورأسك يا شيخ الهمّ، وواحدةٌ أعطيها لأمي. ربما أعطي نصفاً لأمي، والنصف

الآخر أتشبرق[1] به على هواي. إن عمتي أشد عتّواً وصلفاً منك يا عجوز النحس، لكنني سأغافلها وأفعل ما أريد. سيأتي رمضان.. في كل سنة يأتي رمضان، ومهما كان بَرْدُ الأربعينية، يأتي رمضان.. إن رمضان فرصتك لجمع المال الكثير.. مَنْ قال إن الناس تحتاج شيخاً يوقظها للسحور؟.. جميع الناس مسلمون، وجميعهم يعرف أن لرمضان سحوراً يؤكل فيه حتى الإمساك ثم يُصلّى.. إلا الصوصاني أبوسورين، ما له صوم ولا سحور ولا صلاة.. سأقبع لك وراء سور العمة، فإذا مررْتَ بطبلتك، طبلةِ اصح يا نائم وَحّد الدائم، رميتُك بالرمانة الأكبر. الطَبلة ستقع من يدك. وأنت ستنهار. تصطدم بجدار يشجّ رأسك ويُدميه. سأضحك صامتاً من كل قلبي.. وفي الصباح تقول الحارة بأن أبا سورين هو الذي فعلها.

ردّ عبدَ الجليل من تداعياته، صوتُ أبيه:

-ولك يا عبد الجليل، يا ابن ستين صرماي[2]، لماذا أنت بعيدٌ عنا هكذا.. استعجل. متى تصبح رجلاً فتمشي مثل الرجال.. لعنك الله ولعن أخوالك.

قال الشيخ:

-لا يا أبا عبد الجليل، لا تلعنْ أحداً.. أنا لا أقول إن أخواله طيبون، لكن أدعُ لهم بالصلاح يهدهم الله سبحانه وتعالى.

-سبحانه، جلّ وعلا.

حث الولد خطاه. لاحت الساحة.

---

[1] *تشبْرق: بلهجة أهل حلب: تناول حلوى أو لِبان أو ما إلى ذلك، من قبيل التسلي.*

[2] *صرماي: أو صرماية: حذاء جلدي غالباً أحمر اللون يصنع يدوياً.*

كان في الساحة جِمالٌ قابعات تتملّى المارة في بله وربما باستهزاء وتمضغ أشداقها الكبيرة أشياء وأشياء لا يعرف غير الله ما هي.. وقد أتت من مكان في البادية، أبعدَ من البُعْدِ نفسه.. محمّلة بأعواد من السوس. وبرُكبانِها الشُعْث.. أما الصباح فكانت بشائرُه تُقبل سراعاً من الأمكنة البعيدة التي لم يزرها أحد، بل إن الشيخ بجلال عمله الوفير، أعجزُ عن معرفتها.. وإذا سئل، قال الله أعلم.

أحد الجمال لوى إلى الخلف عنقاً طويلة، بطول ساق امرأة الشيخ، فعاجله البدوي بضربة من قضيب رفيع.. أجل بطول كل واحدة من ساقيها الزهريين.. كان الولد قد رآهما في حمّام النساء قبل سنة أو أقل.

تساءل الولد عبد الجليل: لماذا لم تعد أمي تصطحبني إلى الحمّام؟ ألأن هذا المتسلط طلب ذلك من أبي؟ ما لهذا الشيخ العَفنِ ولنا؟.. إنه يتدخّل في كل صغيرة وكبيرة من شؤون الناس . لكن أبا سورين وحده من دون الحارة كلها، لا يأبه له البتّة. ربما بينهما مصلحة مشتركة، فلا يُبديان أمام الناس ما هي، ويُظهران أنهما على اختلاف دائم.. وربما إن أبا سورين بطلٌ من الأبطال فيخاف منه الشيخ ولا يقربُهُ، بل ويَحْتَمِلُ منه ما لا يُحتَملُ وما لا يجرؤ أيُّ رجل في الحارة على مثله. ماذا ينقصكَ يا أبي لتكون مثله.. فعلاً إن لله في خلقه شؤوناً.. سأطلب من أمي أن تعود إلى اصطحابي للحمام، فإن أبَتْ، والله لأذهبنّ إلى القمّيل[1] أعمل فيه وقّاداً في الليل، وفي النهار أصعد فوق قباب الحمّام، وأنظرُ أنظرُ خلَلَ طاباتِ البلّوْر الملون إلى كل نساء الحارة، وليس إلى زوجته فقط ستكون كل النساء

---

[1] القمّيل: مكان قبْو تحت الحمامات، توقد فيه نار تسخين الماء.

ملكَ عيوني ومِلأَها.. ولا يضير إذا كانت أمي بينهنّ، أليست أمي ومحرّمة عليّ؟..

ازداد الشطط بخياله، واستمرت التداعيات: أما إذا أحست واحدة من النساء بعينين تريانها، فستتيه افتخاراً سواء أكلَّمَتْ به أحداً أم لم تُكَلِم. وإذ تؤوب إلى البيت عشاءً كَفِجْلَةٍ طرية، وينام الصغار فتتفرّغ للفحل ويتفرّغ لها، ستتيه فوق الإفتخار دِلاً وعُجْباً بنفسها.. بينما الفحل يخور..

فجأة توقّف اندفاع الحلم.

ثم عاد الولد فحدث نفسه: لا بأس مع كل هذا.. ولكن ما الوضع، إذا رآني أبو فاضل، صاحب الحمّام؟! لا شكّ أن مصيري هو شر طرْدَةٍ. سأغدو حديث الحارة كلها.. مثار إعجاب الفتيان والصبية جميعاً.. ومثارَ رغبةٍ في إفراغ جميع هموم وإسقاطات الرجال.. وربما أراد لي أبو فاضل عقاباً أشدّ، فصفعني ثم سلّمني لأم فاضل تُدخِلُني على النساء اللائي كشفتُ عوراتهن وأدخلتُها إلى عيوني، يفعلن بي ما شئن.. وماذا سيفعلن أكثر من لسْعي بإزاراتٍ يَحْلِلْنَها ويَنْهلْنَ بها نديانةً عليّ كيفما اتفق، وبطاساتٍ مَكاويّة لمّاعة كالمرايا سيقرعنَ بها رأسي، فيرِنُّ رنّاً، وأنا أنتشي!!.. أما إذا لم يرني أبو فاضل، وعُرِف أن أحداً ما تلصص على النساء من فوق قبّة الحمّام. وتقوّل البعض علي، سيُقال: لا، عبد الجليل نائم، ولا يفعلها، يا عيني عليه نائم، إن شغْلَهُ مُتعِب، كله ليلي، ليس مثل ما كان أيام شغْله بالفرن.. فأنجو..

توقف تفكير عبد الجليل لأن أباه صاح به:

- أسْرِعْ، فليُسْرِعْ عمرُك إن شاء الله.. تأخرنا. سيُجَنُّ

معلمُك أبو سورين من تأخُّرِنا. أسرع يا حَبَتِّي[1] يا ابن سبعين جزمة.

قال الشيخ في تشفٍّ وامتعاض مصطنع:

- لا تضغط على الولد يا أبا عبد الجليل، إن كثرة الشد ترخي. وإذا ضغطت على النَّذْل عَلَمْتَهُ المَرْجَلَةَ.

قال الولد في نفسه: والله لأرخين عظامك كلها بضربة رمانة واحدة، فإذا أخطأتك، رميتك بالثانية ولتذهب شبرقتي وتذهب أمي لجهنم.. بلى سأرخي عظامك النخرة مثلما ارتخى عنق الجمل بعد لسعة القضيب.. يقولون إن البدو أشداء، وإلا ما تمكنوا من العيش والنوم مع الجمال، ومن تحميلها كل هذه الأحمال، وامتطائها فوق ذلك. وأنا سأمتطي قباب الحمام. واليوم، اليوم تعرف يا أبي أنني رجل ولا كل الرجال.. المهمة اليوم هي التخلص من العمل عند هذا الصوصاني الكلب.. فمن يكون أبو سورين هذا، لتحسب له يا أبي كل هذا الحساب.؟ وأية صنعة هذه التي سيعلمني إياها؟.. إن كل ما أشتغله هو إحضار الطحين أو تقريب العجين أو توصيل مخبوز إلى أصحابه.. هل هذه صنعة؟؟ الحارة كلها تحسب له ألف حساب.. وهو لا يحسب لأحد حسابا؟ حتى للشيخ ذاته؟.. اليوم تعرف يا أبي من أنا، وتعرف الحارة أن عبد الجليل يفعل ما لم يفعله عنتر.. تصرفٌ واحدٌ مني.. كأن أرمي العجين على الأرض فيتسخ، سيشكل هذا سبباً كافياً يُخرجُ أبا سورين عن صمته الأسطوري.. سيثور كالبغل، لا، كالثور الهائج. سيسب جدود جدودي، فأضربه.. أنا وحدي دون الحارة، أفهم لغته. إن الشيخ بجلالة قدره لا يعرف منها نُطْقاً

---

[1] حبتِّي: كلمة شتيمة من لهجة أهالي حلب.

واحداً.. سيعلم أبو سورين جيداً أنني ما ضربته عبثاً، بل رداً على ما شتم به أمي. الغير سيقولون إن عبد الجليل كَالَ لأبي سورين الذي لا يقدر عليه أحدٌ، لكماتٍ لا عَدَّ لها ولا حصر، لمجرد أن لامَهُ لعدم الحرص على عجين. فأصير البطل والأمثولة القدوة، ولا بدَّ أن الشيخ سيُعدِّلُ من أسلوب أحاديثه مع أبي... أما الصوصاني فلن يفعل أكثر من أن يركلني كعادته ركلة واحدة، أكون بعدها حراً طليقاً خارج العمل عنده وخارج الفرن كله. أما إذا ثنَّى الركلة، فأحمله ككيس طحين وأرميه في بيت النار.. ولْتَقُمْ الساعة بعدها.

- تأخر الوقت بنا يا أبا سورين.. أين اللعين أجيرك؟ لن ننتظر أكثر من شُرْب سيكارةٍ، ثم نذهب بالحِمْلِ إلى غيرك.. أتحسب فُرْنَك وحيداً في البلد؟

قال البدوي ذلك، ثم عاد يصنع لفافة تبغ ويسعل.

أجاب أبو سورين:

- إصْبُر بابا.. إصبُرْ حَجّي.. الولد قرب وصوله.. ذهب الكثير ولم يبق إلا القليل. الغائب حِجَّتُهُ معه يا جَحّيْ.

- بلا حِجّهْ، بلا مِجّهْ.. شُرْبُ سيكارةٍ، ونروح.. صار الظُهرُ يا زَلَمِهْ

- تعالوا يا أخوة العُربان. أدخلوا.. الجو بارد خارج الفرن.

- الآن، تقول لنا ادخلوا؟! نحن من قبل طلوع الفجر هنا مع الزمهرير.. مشكور بابا. الجو هنا أدفأ من ضيافتك.. والله أنتم أصل البخل يا أهل المدن، وبالذات أنتم يا صواصنة.

- لا تْسِبْ أَصِلْ حجي.. كل وِحْدِهْ أصلو معروفه..

صوصاني، تبن يأكل، والضيف نطعمه صينية كباب بالفرن، بابا.

- السلام عليكم يا النشامى.. لماذا لم تصلوا الفجر معنا؟

هذا ما قاله الشيخ.

رد البدوي الأشعث كالقثاء بصلف واستفزاز:

- خلينا الصلاة لك.

قال الولد:

- خذ من هذا الكلام واشبع.

لكن أحداً لم يسمعه.

تظاهر الشيخ بأنه لم يسمع كلام البدوي، وهتف بعبد الجليل:

- خفف أحمال البعران[1] يا ولد. إن لدى الأخوان طريق طويل إلى مضاربهم.. أعاننا الله وإياهم على احتمال الصعب وما تخبئه الأيام والليالي.

كانت الحركة في الطريق قد أخذت تنتشر انتشار البرد القارس نفسه.. الحمير ملأت الساحة بالنهيق وأذيالها تتراقص ارتجافاً أو انتشاء، وخدود الصبية والبنات كما لو طبعت عليها طبعات من ورق الورد ومشربة بالزرقة والاصفرار والابيضاض والاحمرار في آن معاً، مع شقيقة نعمان ساكنة بمرح على كل وجنة... كانوا يتدافعون بكل اتجاه يتجاذبون الأثواب، ويعاجل بعضهم خفية إلى حزم السوس المحكمة على ظهور الجِمال، فيسحب عوداً طال أو قصر، فيدس ذؤابته لاهيا بين شفتين مرتجفتين ومزرقتين.. وغيرهم

(1) البعران: جمع: بعير.

كان يتراكض حول أجناب الشيخ وأبي عبد الجليل الماضيين في طريقهما: هذا إلى السوق يجبي منه ما تيسر لمعاشه ولخدمة الجامع؛ وذاك إلى دكان عطارته.

نهر عبد الجليل صبية الحارة وبناتها. ابتعد الجميع إلا بنتاً ناولها برضى وحنان قضيب سوس طويل؛ ثم انكب في ثقة واقتدار طائلين على أحد الأحمال فشالَهُ كلَّهُ برفعة واحدة ومضى به إلى الداخل. كان أبو سورين يرغي ويرطن، بل كان يستجمع كل قواميس الشتائم الصوصانية القذرة ويرمي الولد بها.. عبد الجليل كان يفهم ما يسمع. وعلى الرغم من دفء المكان وروعة احمرار بيت النار الذي لا يقاوم.. خرج عبد الجليل إلى الساحة. وقف برهة طويلة. عب من برد الصباح، ثم حمل بخفة نَسْرٍ حِمْلاً آخر وهوى به على ظهر أبي سورين. بهت أبو سورين.. صعق. فقد دفعه الحِمْلُ المقذوف قريباً من فوهة بيت النار، فاكتوى...

استخرج من الجوف حفنة سوس ملتهب وقذفها باتجاه الولد. وقعت الحفنة على جمل تخلص لتوه من حمله، فهب مندفعاً باتجاه أبي سورين.. وبرأسه الضخم البليد دفعه دفعة أدخلته حتى كتفيه إلى بيت النار.

قال الولد في سره: يا ألله!! لو أن لي قوة هذا الرأس الصلب.. كنت نطحت أبا سورين، أو صدر الشيخ فدحرجت العمامة.

هب البدوي. تجمهر حشد مندهش أو ضاحك.

ربما إن أبو سورين عوى!.. قال بعض: بل شتم بصوت كأنه خوار. قال مارٌّ بالطريق: جمل وهاج. ماذا نحن فاعلون مع جمل هائج. البداوى أنفسهم إذا هاج عندهم جمل تركوه.

كان البدوي الذي له شكل قثاء شعثاء قد قهقه طويلاً وانقلب على قفاه، بينما كان الجمل يخرج متمهلاً من الفرن، وقد عاد شدقاه يلوكان ما لا يعلم إلا الله.

أمسك عبد الجليل زمام الجمل. وقف على رؤوس أصابع قدميه.. وبحنان هر دعج، أدنى شفتيه فقبلتا عنق الجمل.

حسب الجميع، بمن فيهم البدوي، أن الولد يهدئ من غضب الجمل.. لم يدُرْ في خلد أحد البتة أن عبد الجليل إنما كان يتصور نفسه يقبل فخذ امرأة الشيخ.

سر الولد.. أحس بانتشاء اللحظة الحالمة.. أسبل عينين صافتين واستسلم لخدر كالنوم لذيذ.. صحا على أصوات ولغط كثيرين، وناس أتوا من كل حدب ومن كل صوب: ناس يعرفهم، وناس لا يعرفهم، صبية كثر وبنات، شباب ونساء وكهول؛ جمهرتهم الساحة الرحبة.. فيما قدماه الصغيرتان محكومتان بوثاق جلدي شديد؛ والشيخ يهوي عليهما بقضيب رمَّان رفيع وطري، وأبو سورين يحزم عيداناً من السوس ينتقيها قوية وندِيَّة ويُقْبلُ بها على قدميْ الولد مخففاً تَصبابَ العَرَقِ من جبين الشيخ الغاضب... وكان صبيٌّ فَتِيٌّ يجلس بزهوٍ على صدر عبد الجليل..

أما البدوي، فكان يسعل سعال مصدور، وتلف أصابعه العجفاء لفافة تبغ جديدة.

■■■

جهــراء

سقطت على قلب جهراء جملـةٌ جبلٌ قيلت عجلـى، وإنما بإصرار:

[السيد طلبك لأكبر أبنائه]..!!

كانت جهراء مولعة بجابر، شغوفة بـه، وتعتقد أن حبهما مثل جُبِّ القريـة يـزداد مـاءً كلمـا زيـد نزِحـاً، أمـا أن يخطب جـابرٍ غيرهـا فتلك مسـألة فـوق كلِ احتمـال. لقد كانـت عصيَّة علـى كل خاطـب. تعرف ذلك القريـة كلهـا، وإذا كـان جـابر قـد خطـب غيرهـا وأزمـع علـى زواج قريـب؛ فيجـب ألا يعنـي هـذا أنهـا غـدت لقمـةَ أيِّ نَاوٍ للزواج.. فحين طلب السيد يدها لأكبر أبنائـه- وهـو تشريف مـا بعده تشريف حسب مفـاهيم أهـل القريـة- تأبَّـت؛ ولـم تتعلـل بشـيء. وعنـدما عـرف السيد أجـاب: أخطبهـا لنفسـي إذن.. معروف عنـه أن نفسـه خضـراء. وعنـدما استُدعِيَ أبوهـا إلـى مضـافة السـيد أصـرت أن تذهب معه.. أعتقد الأب بأنهـا تريـد أن تـرى السيد قبـل أن توافـق، وإذ فشـل فـي إثنائهـا، قـال فـي نفسـه: حقُّهـا الشـرعي أن تـراه، أو لعلَّهـا تريـد إعـلان موافقتهـا أمـام ملأ الرجال..

كانـت جريئـة كمـا هـي دائمـاً، فقـد دخلـت مجلـس

الرجال وقالت:

- اسمع يا عمِّي، يا سيد القرية.. ماذا تريد المُهرة، يا عمِّي؟؟

وقبل أن تسمع الإجابة.. خرجت كرمح أصاب مقتله ومضى..

امتقع وجه أبيها.. وتلوَّن وجه السيد، احمرَّ اصفرَّ زعفراناً ثم أزرقَّ، من جرأة وقسوة ما سَمِع. همهم الرجال في جنبات المجلس. تنبَّه أبو جهراء لذهاب ابنته، فلوى وجهه قبل أن يجلس وهمَّ ليُغادِر، لكن السيد صاح به: بل تجلس وتتقهوى كالعادة يا أبا جهراء. ثم تنحنح.

سكت الجميع تلهفاً لما سيكون عليه ردُّ فعله. صمت طويلاً. عَبَّ فناجين قهوة لم تُحْصَ عدداً. فاجَأَ الجميع بأن قال: أمسِ جاءني من الحاكم رسولٌ، أن علينا تقديم خمسة رؤوس إبْلاً وعشرة رؤوس غنماً وبعض السمن. إن ضيوفاً مهمِّين سيردون عليه. فالإبل عليَّ.. ثم جعل يُسمِّيَ من اختار للوفاء بما بقي فيما الكل صامت في عالم صنعته كلمات جهراء.. أراد أحد الجمْعُ أن يعتذر، لكن مُسِناً هزَّ رأس السمع والطاعة، فانصاع الجميع.. أردف السيد: أما أنت فقد أعفيناك، يا أبا جهراء..

أُعيد صبُّ القهوة حتى آذن وقت الغداء فأقبلوا يلتهمون..

كان أبو جهراء كَمَنْ يأكل أحجاراً سِجِّيلاً تصطكُّ بين شدقيه وتكاد أن تسد البلعوم.. ويحسُّ بجبل من الخزي لِتَجَرُؤ ابنته بالصورة التي تبدَّى بها، كما ودَّ لو خسفت به المضافة وبالسيد ورجال القرية..

لقد فهم مغزى أن يُعفَى من المشاركة في الجُعْلِ المطلوب.

عاد الجمعْ فانعقد بعد صلاة العشاء إلا أبو جهراء فما جاء حتى أرسل إليه السيد.. إذّاك فضَّ السيد ثِقَلَ الجلسة بأن قال: مع الصبح أصطحب الجُعْلَ إلى المدينة. وصمت وقتاً دهراً أدار فيه داخل الرمل قضيباً كان في يده، ثم دفع القضيب داخل الرمل فانكسر. قال: والله، يا وجوه الخير، أصابت جهراء فيما أخطأنا. الأصقهُ لا سمعَ له، فَلِمَ يكون لديه بلبلٌ يشدو. إن البلابل تريد آذاناً تسمع.. والمُهرة تريد فارساً.. لا سائساً.. فأنت يا أباها يا أخي، تخيَّر لها.. إنها لجديرة بفارس شاب. بأفحلِ فحل.. وليس من الجنون دخولُ جهراءَ علينا الصبح، كما علمْتُ بأن البعض قالَ.

لم يعلق أحد.. لكن الكل تخوَّف مما وراء كلمات السيد.

رجّ الأسماع، ورجَّ هدأة الليلِ والمجلسَ وجميعَ البيوتِ الداجنةِ.. آهةٌ واسعةٌ تبعَها عويل طويل ومتقطِّع.

كانت جهراء قد تلقت ضربةَ مِجْرَفة قوية على رأسها وصدغها في الفراش، فخرجت غزالة جريحة تعدو في كل اتجاه، نصفَ عارية، لا هي تبكي ولا هي تصرخُ ولا هي تولولُ. كانت تعوي.

هبّ الرجال. تركوا المجلس للجمر يكوي دِلالَ القهوة.. عاجل أبو جهراء فألقى على ابنته عباءته، فيما احتضنها السيد وشدَّ.. ما أحسَّت. واستمرَّت تولول.. كان ألم يفوق التصبرُّ يحتويها ويعتصرها اعتصاراً، والرجال متحلِّقون.. هذا يقول اصفعوها، وهذا يقول اتركوها لن تذهب بعيداً، وهذا يقول جازاك الله يا

جابر.. لقد جُنَّت البنت مُذ قيل إنك ستتزوج غيرها..

أما أبوها فغدا داخل ذهوله، أبله لا يقوى على فعْل أو قوْل شيء البتّةَ.

أمر السيد سائس خيله ليحملها إلى الحريم، ثم ليسرج له فرسه، فقد طلع الصبح أو كاد، كما قال. لكن الصبح كان بحاجة لأكثر من ساعتين كي تطلَّ بشائرَه.

مضت على الحادثة شهور، وجهراء مقيمة مع حريم السيد في قبضة صمت داكن.. يكلمها الجميع ولا تجيب أحداً، وإذا ردَّت فلا أكثر من أن تقول: جابرٌ هوايَ.. وتعود إلى داخل صمتها الداكن.

أما جابرٌ، فمشغولٌ بالإعداد لعرسه. وفتاتُه التي اختار تعيش اغتباطها.. وبين الحين والحين تتناول جهراءَ بدسيسة أو تذَكِّرُ بها مجنونة من قبل أن يخطبها السيد لابنه ثم لنفسه. بل تسميها المجنونة كلما أتت على ذكرها. وتبتكر الأقاويل عنها.. من قبيل: إن جُنّاً يسكنونها ولا بد أن تؤذيَ من يلامسها أو حتى يقترب منها. وزعمت: إن هذا ما حَوَّلَ جابراً عنها.

وقالت إن جهراءَ كانت وراء احتراق محصول السيد منذ شهر، وأضافت: ماذا السيد صانعٌ مع مجنونة هل يُسَلِّمَها للمخفر؟ كيف يفعل هذا وهو من آواها وسترها بعدما لَعِبَ الجُنَّ بها لِعْبَ الرجال بالحريم.. أعوذ بالله من الشيطان الرجيم. أبْعِدْها وأبْعِدْهُمْ عنّا يا رب..

كان النسوة يُنصِتْنَ ويَخْتَزِنَّ ما يَسْمَعْنَ فيروينَهُ حقيقةً ويَزِدْنَ. وكثيراً ما كُنَّ يُخفْنَ بها أطفالَهُنَّ ويَنْهينَهم عن الاقتراب منها.. خوفاً عليهم. ويَقُلْنَ لِضناهنَّ: إذا طلبتْ جهراءٍ أي شيء منكم يا أولاد، فأعطوها، حتى لو كان لقمةً في أفواهكم..

وجهراء التي ضُربَتْ بالمجرفة، فقدت الكثير الكثير من ذاكرتها، فلا هي قالت ضُرِبْتُ، ولا اهتمَّ أحدٌ بالبحث عن سبب ما أصابها.. إلاّ أنها كانت تُحِبُّ الصغار كلَّ صغار، حتى إنها كانت تُسَرُّ وتحنو على الصبايا والهِرَرَةِ والجرابيع والفئران. لكنها كانت تقسو أشدَّ القسوة على الخفافيشَ التي تعبر ساحات الضيعة عند كل غروب، وعلى الرجال –شباباً كانوا أم شيوخاً- وذات مَرَّة احتصنها عجوز خلف مطحنة القرية وَهَمَّ يقبِّلُها فغرست أظافرَها تحت لحيته ولم تتركه إلاّ بعد أن أخذت بأصابعها شعراتٍ منها قبل أن تبصقَ عليه وتُفلِتَ وتتقيَّأ.. وأيضاً تقسو على أشجار العُلَيقِ فتشدُّها حتى حدود الاقتلاع، تنظر إليها في تَشَفٍّ وساديَّة مُطلقة. والقرية ماشت خطيبة جابر، ليس بأن جهراءَ جُنَّتْ لأنَّ جابراً تخلى عنها، أو لأن شيئاً ما أصابها تلك الليلة فخرجت حاسرة وتعوي.. بل لما تسرَّبَ من بيت السيد أنه قال لإحدى حريمه بأن جُنِيَّاً أصاب من جهراءَ وَطَرَاً تلك الليلة فجُنَّتْ. وهذا ما تلقفته خطيبة جابر وسارت به بين نساء القرية وفتياتها..

أما جهراء نفسها، فمُنشغلةٌ عن كل ما يقال، رضيّة باستعدادات زواج جابر، تسهم مع المُسهمات، وإذا نُهِرَتْ عادت فقالت: جابرٌ هواي. فيتركونها تفعل ما تفعل. وما إن ترى السيد مقبلاً نحوها ليؤوب بها إلى بيته مع مغرب كل شمس في حنوّ يحرص على أن يكون بادياً وواضحاً.. تترك ما هي مُنشغلة به أياً كان فتتطلع إليه بخنوع، ثم تمشي وراءه خائفة من شيءٍ أمرٍ لا يعرفه إلا هما.

القرية كلها من رجال ونساء، كانت تستغرب كيف يُطْلِقُها السيد نهاراً ويستعيدها كل ليلة إلى بيته.. وكانوا

يتساءلون عما يدعوه لهذا، ولِمَ لا يُعيدها إلى بيت أبيها..

قيل بوجود اتفاق بينهما على ذلك حيث يتلو السيد عليها ما يتيسر مما لا يعرفه سواه، فتبقى هادئة ولا تزداد جنوناً.. وكان الواحد منهم يُسائل نفسه لماذا لا يجعلها الشيخ مع حريمه خادمة تكنس أو تحلب الماعز أو تقدم التبن للبهائم، بدل أن يُطلِقها هكذا في أزقة القرية عُرضة للمهانة والسخرية والتقوُّلات.. بخاصة وقد بدا كأنها حامل في شهرها الثامن. وبدأ الناس يتقوَّلون، فمرَّر السيد أنه نسي أن يقرأ عليها ليلة، فأتاها الجني وأصبح لزاماً أن تلزم دار أبيها حتى تضع ما لا يعلم إلا الله ما سيكون.

في الصباح التالي لمبيتها في بيت أبيها قيل:

إن مخاضاً شديداً وغريباً أتاها مع الفجر، وما كاد يهمُّ أبوها بالذهاب ليُحضِر داية القرية حتى شعر كأن يدان من حديد أقوى من حديد كل المحاريث سمّرت قدميه ومنعته، ثم سمع صوت شيء كأنه مِزْرَبَّة تهوي لا يدري من أين ولا أين هوت، فشهقت جهراء وسال دم كثير من قمَّة رأسها وأذُنيها، ثم أسلمت الروح لبارئها..

.. وقد اختلف الرجال رأياً في أن يُصَلُّوا عليها أم لا.

كان رأي السيد:

- بل نصلي، إنما خارج المسجد.

■■■

موّال وفيقة

هدأت ضوضاء الليل الأول، والليل الثاني هجد، وهجع الليل الثالث.. كل شيء سكن، فشرعت نسائم المساء الرطبة الحنونة في اتخاذ مساراتها نحو شرفات العشاق.

تغطَّى كل حبيب بحبيبه واحتمى به. امتزجت النجاوى بالتواجد باللهفات.. والسفن الراسية في الميناء، سلَّمت مشاعلها الأليفة لسطح الموج الناعس، بكل ما لها وما فيها من الدعة ومن الاستكانة.

عند هذا الوقت بالذات، امتدت يد وفيقة البضَّةُ البيضاءُ كحمامة إلى خشبة السنديان التي جعلت منها مقعداً للأرجوحة الأثيرة. سعُدت الخشبة فماست الأرجوحة. كان عليها منديل أحمر مطرَّز الحواشي بخيوط أليفات من الفلِّ والقرنفل الأبيض العبَق، اعتادت وفيقة أن تعقده على الشعر الأشقر المنسدل على الظهر كلما هبطت إلى المدينة المجاورة، فيظن من تقصدهم أن التطريز فضَّة لشدة بهائه.. ولكنْ أنَّى لأهل الجبل أن يشتروا فضة يطرزن بها مناديلهم. لو كانوا يملكون لاشتروا بأثمانها تمراً يأكلونه في رمضان أو سمناً يمزجون به كعك الأعياد، أو كانوا

اشتروا حمَّالات أثداء لنسائهم. صحيح أن وفيقة في غنىً عن حمَّالة أثداء؛ ولكن أثداء نساء القرية كلِّهن متدلِّية أبداً كضروع الماعز، وأحياناً تُشبه وهنَّ يمشين أوراق تنباك معلقة على عيدان التجفيف إذا داعبتها نسائم بحر هشَّة.. ولو ملكوا الفضة كانوا جعلوها خواتم أَوْلَجُوا فيها أصابعهم علَّها تضيء؛ فربما أشبهت أصابع الأغوات المكروهين المحبوبين، وما ظلَّت أصابع أبناء آوى أو ذئاب بمقدماتها المُصْفرَّة من لفافات تبغ يتلهون بأدخنتها بين شفاه مُقْشِبة صيفَ شتاء، فيما هم يتلذذون بلسْعات احتراق شهي.

..فَيَدُ وفيقة البضَّة البيضاء كحمامة، تناولت منديل الدموع. اقتربت به من عينين دامعتين حرَّانتين واسعتين سعة الكون، فلامست بحنانه دمعة واحدة شرعت بالإنسيال على الخدِّ الأسيل الذي كأن فوق نَهْدَتِهِ أرجواناً، فتشرَّبها المنديل وازدهى.

مدَّت نظرة إلى حيث يقيم البحر، آخر الأرض الممتدة من جرود القرية إلى حدود الوادي إلى الأفق.. مسَّدت كل ذلك بالنظرة. أحسَّت وفيقة أن النظرة لاقت حبيبها فقالت للقمر:

- إن حبيبي في شقاء غربته يجمع الآن زعروراً أو تفاحاً أو أقاحي. ولعله مستلقٍ على حصيرته يفكِّر فيَّ. إن حبيبي يجمع المالَ ليُعْلِيَني بين البنات بهداياه الكثيرة الثمينة.. قماشاً وعطوراً، بل حتى ذهباً.. وسيشتري لي أريكة أتوسَّدها، وأوسِّد رأسه على صدري فوق قلبي.. سأُغنِّيه ويُغنيني..

عادت وفيقة بنظرتها فرأت أنَّات عناقيد العنب، المُعرِّش أغصاناً أغصاناً كالعشاق اثنين اثنين، تتوارى؛ ورأت الأسى ينتضي نبرته الشجية ويناولها

لاشتياق الصدر الثري المكتنز، لتنفتحَ مغاليقَ رغبتهِ وتنضحَ ـ كالآجر- مخزون النار القديمة، وتتعرَّق زجاجاً فينيقياً مُشرَّباً بالتوق الكظيم.

قضت وفيقة الليلة كلها هكذا، حتى ترخرخ جميعُ الليل، وخرج من الوادي ملوَّناً بالشفق. صعد فوق الوادي الأسود كالباذنجان، فصبغَهُ بتؤدةٍ وبحنان أكثرَ من جمّ. صاح ديك وغنى شحرور. بانت شمس الأوْبةً.. أيقنت وفيقة، وأيقنت يدها والأرجوحة والمنديل والدمعة والعناقيد والصدر ومغاليق الرغبة والآجر والليل المُغادر.. كلٌّ أيقن أن الحبيب عاد.

بدأت وفيقة تسمع ما كأنَّهُ صوت حبيبها. الموال الذي غنَّياه معاً قبل سنين، تسمعه الآن يغنيه ناقصاً أجمل ما كان فيه. وصوته لم يعد كما كان..

إن فيه بحَّةَ ناي يتعذب.. فَنَضَتْ رعشة مغاليق الرغبة، ثم سحبت من صوتها اختزان السنوات الباهتة، وتجاوبت مع الموال القادم من خلف السفر.. أذِنت لرحابة صوتها أن تسترجع مداها الابتدائي.. غنت داخل الصوت. رجعت إلى يوم أن غادر الحبيب وحيداً إلاّ من جُعبة أعدتها له وتعويذة دفعت مقابلها مئتين وثمانين حبَّة زيتون مُجرَّح، وأربعة أرغفة؛ وأضافت إلى المُقابل المدفوع قنينة زيت على سبيل الهدية؛ وأحاطت كل ذلك بعينين حانيتين واسعتين سعة الكون، ودعاءً صادقاً وصموتاً.

كانت الضيعات المتاخمة والمجاورة مبتهجة ابتهاجاً عظيماً، فكلٌ منها تحسب العائد ابناً لها. أما العاشقة وفيقة وأترابها، فواثقات من أنه لوفيقة وحدها. إنه حَرَمْها الذي لا يُتَجاوَزُ قط باقتراب أو ملمس، كما أنها هي نفسها حَدُّهُ الذي لا يطال. فللآخرين وللأخريات أن ينظروا إليه. أن ينظروا فحسب...!

علت في الجو البعيد هنهنات وزغاريد هزّتْ جذرَ الوادي وسقفَ السماء. انفتحت حقول صنوبر. فاح طيب كثير. ضاءت عيون وفيقة. صحا كل ما في عمرها، هتف بالعروق فصحت قانية دافئة. وضح انتظارها باللهفة.. فقد بدت عند أفق التطلع جمهرة عراضة: رجال ونساء وأطفال صبية وبنات يرقصون وهم يمشون بتدافع نمل.. ويمزج الجميع ضحكات تتخللها أحاديث عن السفر الطويل والبلاد التي عاد منها حيث يأكل الناس كل يوم ـ كما زعم العائد ـ شواء من لحوم الخنازير والظباء المستأنسة، مضمخاً بالعصفر والزعفران وبهلام لزج كالآهات.

قال بعض الشيب:

ـ إنهم كفارٌ على كل حال. فهم لا يصلون ولا يستغفرون ولا يعترفون.. أيتبطرُ أحد هكذا إذا لم يكن كافراً وابن كافر. اللهم أبقِ علينا إيماننا وقناعتنا فإن القناعة كنز لا يفنى.

جاوبه حطاب صياد قديم:

ـــ لا. إن خنازيركم برية وهو يقول لنا إن خنازيرهم مستأنسة. ولكن الظباء؟! ماذا في الظبي ليؤكل؟ والله مافيه أكثر من أوقية لحم، والباقي جلاميط للقطط، اسألوني أنا. مرة صدت ظبياً أكلته وحدي وماشبعت..

من الشيب من تبسم ومنهم من ضحك. ثم عادوا ينصتون لما يحدثهم به العائد كالأنعام أوكما لوكانوا في خطبة جمعة أو قداس أحد. قال إنه أزمع مرة أن يشتري مدينة كاملة هناك، فعارضته الحميراء ـ مشيراً إلى رفيقته الأجنبية التي ما انفك يخاصرها منذ خروجهما من الميناء ـ ...

قال بعض:

ـ لو شاء ابن بلدنا لاشترانا إذن وبيوتنا وأبقارنا وكلابنا جميعاً. تصوروا، يقول كدت أن أشتري مدينة بأسرها. لقد صار من أهل المال، وغداً يصبح من أهل الجاه أيضاً.وربما جعله الوالي قائمقام الجبل.. لم لا، وربما جعله السلطان والي الشام. يقال إن الوالي مغضوب عليه الآن..

قال ثان:

ـ أو وزيراً، أو آغا.

كانت العراضة تستمع وتستمتع وتستغرب وتتعجب؛ بينما هي تتقدم وتتوقف، ثم تعود تمشي هوينى هوينى.

قال العائد لواحد من العراضة:

ـ آه على كأس عرق. لقد قرحت قلوبنا من شرب الويسكي هناك.

أجابه الذي سمعه:

ـ لعينيك.. كل شيء جاهز.. واجبك كبير أنت وضيوفك.

ـ هذه زوجتي، ليست ضيفاً. قلت ذلك منذ وصلت.

ـ أنعم وأكرم. على كل حال هي ضيفتنا.

تدخل آخر قائلاً:

ـ لعنهم الله وما يشربون بتلك الديار. هل يوجد أطيب من العرق وأنظف؟ إننا نصنعه بأيدينا فنعرف كل قطرة فيه، واليانسون من أراضينا.. سمعت أن الويسكي يصنعونه من البصل.. تفوه.. على هكذا

مـزاج. أيشـرب إبـن آدم معصـور البصـل ويتـرك معصور العنب المقطر.

قالت الأجنبية التي تشبه كوز ذرة صفراء يانع:

ـ أخيراً هانحن في بلدكِ. سأرى ماذا يكون العرق. لقد ثقبت آذاننا بكثرة حديثك عنه.

أرخى على كتفها العريان يداًوساعداً. لف خصرها وابتسم لها. خشي الجميع أن ينهصر الخصر. فإن محيطه لا يزيد على قُطْرِ جَبَسَةٍ لم تكتملْ نضجاً. بل إن الخصر كله لم يكتمل نضجاً ـ كما قالت نساء عندما أبصرنها أول مرة ـ وقلن:

ـ أما الوجه فسبحان الخلاق كيف أبدع وصور..

لكنهن أضفن:

ـ إذا كانت زوجته كما قال، فلم العري والجمع رجال؟ إن نحرها ونصف الصدر عاريان تماماً. والظهر ـ أخزى الله زوجها وأخزاها معه ـ مكشوف كاندلاق ثمرة ليف في آخر آب.

قال مراهق بهمس:

ـ والله شيء حلو.

حدجته بنت وتملَّته من رأسه حتى قدميه.. فانسحب إلى داخل العراضة. بنتٌ غيرها تبسَّمت لما قاله المراهق. ثالثة زمَّت شفتيها ثم تحسَّرت قائلة:

ـ يا ويلك يا وفيقة مما سترين..

وسكتت.

قالت عجوز:

ـ احفظ علينا حياءنا يارب، فالحياء نصف الدين.. ألم تكن وفيقة أحلى بأدبها ونسبها وحمرة خديها

وجدائلها وقامتها الرمح؟؟ ثم إنها تملك أرضاً فيها بيت وستين شجرة زيتون وأشجار فاكهة تغلُّ الكثير الكثير. وليس لها أقارب ولا أهل.

أضافت صبية من الصبايا:

ـ هذه التي أتحفنا بها على آخر الزمان، لا تعرف حتى كلامنا ولا تفهمه.

ثالثة قالت:

ـ يا حسرتي عليك يا وفيقة. لقد انتظرت انتظرت من لا يستحقك. كل الشباب هكذا لا أمان لهم. يمنُّون الواحدة منا ثم يمضون. عصافير من غصن إلى غصن.

أكملت الأولى:

ـ الآن حلَّت وفيقة لإبراهيم، لقد تفطَّر وجداً وكَلَفَاً بوفيقة، ووفيقة تتأبى وتنتظر عودة المهاجر. يا عيني على إبراهيم. مابقي فيه رمق. لكن الله سبحانه هاهو قد أذن أن يعوَّض صبره، إن لم يكن هذه الليلة بالذات، فلا أبعد من الأسبوع القادم. إن وفيقة لن تغفر فعلة معشوقها. إن لها عناد جدها يرحمه الله.. لقد تعقب دركياً إلى الشام وقتله، لمجرد أنه لطمه لطمة واحدة خفيفة. صحيح أنه أمضى لذلك عشر سنوات سجناً، لكنه عندما خرج كأنه لم يسجن. وقال بأنه قضى سبع السنوات السجن على جانب واحد من جانبيه.. ما تعب. وما قل صلابة. كان وظل سروة باسقة أو أرزة شامخة حتى مات، عليه رحمة الله.

لاحَ سرو الضيعة وأرزُها. آذنت شمس الأصيل بالذهاب إلى حضن حبيبها المشتاق. أمسى مَرَجُ العراضة أقرب إلى أذني وفيقة. بانت ساحة الضيعة. تجلت دار وفيقة طوداً. اشرأب ياسمين سياج الدار.

فاحت ريح: عوسج ونعنع بري. تبدت وفيقة. أطلتْ كعيد..

[وفيقة بيلسان الجبل، وصبا الجبل، وفُلُّهُ، وزعترُهُ، وزَعْرَنَتَهُ، وعنفوانه، واستكانته.. ..].

هكذا كان يصفها إبراهيم.

شاهدت العائد الأسمر كالبطم يعتنق خصر الأجنبية.. تسمرت وفيقة الانتظار المديد.. ظل الحبيب العائد يعتنق خصر الأجنبية... سكن الزمان لديها..

استعدت وفيقة لمواويلها. مدت ذراعاً كالشمس. رفعت ذراعاً أخرى. صارت شمسان على الشرفة، حزينتان وترتجفان؛ إنما مضيئتان. وكانت الشمس الثالثة ما تزال ماضية إلى حضن عاشقها البحر.

تيبست العراضة. أرهفت لتسمع وفيقة.

أبرقت عينا وفيقة. امتد البريق خطافاً نفاذاً كالقدر، فغمر ساحة الضيعة والعائد والمستقبلين، إلا الأجنبية.

صدحت وفيقة بما لا أذن سمعت ولا مئذنة:

هيهات يا بو الزلف

عيني يا موليا

شريان قلبي انقطع

من نظرتك ليا

ثم صمتت.

لم يقدر أحد على إحصاء عدد المسامير التي صلبت قلب وفيقة قبل أن تخرَّ صَعِقَة..

غصَّ حلق إبراهيم بأطنان من السماق، فصعد الجلجلة إلى شرفة وفيقة لحظة أن خرت.انكب عليها

محتضناً إياها كمن يحتمي..

بعد سنين، قال بعض البنات إنهن سمعن إبراهيم يقول لوفيقة: خذيني!! .. وإنها حين انفضَّ جمع العراضة من حول الشرفة والجثّة، ضمَّته إليها، وإنهما اتحدا!..

لكن أحداً لم يصدِّق. كما أن أحداً لم يُكذِّب.

■■■

عنق الجمل

من يرى الذي اسمه نزَّال بن رافع، كما ادعى حين اقتيد إلى سجن حلب مصفد اليدين ثم أُسقِط في يده وتعامل باسمه الحقيقي طيلة السنوات السجن لا يملك إلا القول بأنه من البدو الذين لم ينزلوا حاضرة قطّ، والألصق ـ في معاشهم وسلوكهم ـ بزمن قديم وظل قديماً، لا هو تغيَّر ولا هم أرادوه أن يتغيَّر.

كان منظره وملبسه يؤكدان أنه لم يخالط غير سباع البيد وأبناء آوى ونجم الشمال وعواصف الرمل وسكون الصحراء واستكانتها.. كان بادي البداوة أشعث بجديلته ونهايات كل منهما الأشبهِ بنباتِ شوكي اضطهده الماء زمناً طويلاً.. لم يُعرف له في البدو قبيلة ولا عشيرة ولا فخذ ولا حِمى. ولم يُعرف من أي الاتجاهات جاء، كما لو كان قُدَّ من جبل بعيد، فركب ريحاً إلى أن استقرَّ عند خيمة الشيخ. حتى إن شيخ القبيلة نفسه رغم معارفه وعلومه، لم يعرف.. لكن تِبْعاً من الأتباع قال بأنه قد قدم من بلد الهجران، وصمت.

وحين سئل نزال عن أصله وعن فصله، لم يُسمَع له جواب لا إيماءً ولا نطقاً.. فقيل:

ـ أخرس، أطرش، لكنه يُبصر ويرى.

أحد الجلساء قال:

ـ إن أقرب بدو إلى مضاربنا يسكنون على مسيرة يومين من هنا أو أكثر..فكيف وصل إلينا؟..

تنحنح الشيخ وقال:

ـ لابد أنه تَعِب الآن.. سنعرف خبره غداً، لقد طال علينا الليل يا رَبْع.

ثم أمر له بطعام..

حدق نزال في الشيخ بعينين زائغتين حادتين حمراوين كعيون الجن. ظن الشيخ أنه يشكره، فهز له رأساً ثم مسد لحيته الشهباء ونهض ثقيلاً، فهبَّت المضافة وقوفاً.

ارفض المجلس عن بكرة أبيه،إلا نزال فقد استمر يأكل يزدرد الطعام ازدراداً؛ قبضة أرزّ إثر قبضة، ويردف الاثنتين بقطعة لحم مختلط بياضاً كثيراً باحمرار قليل، ثم يعدل من قعدته ويعاود الكرة هكذا، ويسمع له لغط كأنه خوار؛ ثم يعود يزدرد ويزدرد.. فيما الخادم الذي بقي معه يوليه ظهره ـ حيث من اكتمال الكرم ألاَّ يرى المضيف أو ممثله، الضيف وهو يأكل .

طال الوقت، حتى ملَّ الخادم واستشاط ليس لأن نزالاً التهم وحده ماكان يكفي ثلاثة فرسان أشداء، بل لأنه والنوم أخذا يتغالبان بعد نهار شديد الحرارة أضرم فيه النار وأنجز الطبيخ وأعدَّ القهوة أكثر من عشرين مرة وسلَّمها للخَوِيّ [1] يدور بها على الشيخ وضيوفه:

---

[1] ـ *الخَوِي: جمعها الخَوِيّان، وهم خدم مرافقون مميزون عند كبراء البدو وزعماء القبائل والعشائر مدافعون عنهم وحامين لهم.*

الجلساء والندمان والشاعر الذي يعيد كل ليلة الشعر نفسه بالصوت الخشبي نفسه تعاونه الربابة نفسها.. وبنصف دورة رأس باتجاه نزال، حسب الخادم أن ساعة الطعام قد آذنت نهايتها. أعاد رأسه كما كان. حدق في ظلام المضارب والصحراء.. من يكون هذا الغريب الأكول؟ ما سرُّه؟ من أين جاء؟ .. هل يضمر شراً ما لأحد ما؟.. عاد فالتفت.. فهم من حركة عينيْ نزال بأنه لم يشبع.. قال له:

ـ أطعمناك طعام الحريم، ولم تشبع؛ يشهد الله إنك لمن الجن أو الوحوش. سأحضر لك شيئاً آخر تتسمَّمُهُ لتنام بعده كبغلٍ بَشِمٍ نافق.

لم يبدِ نزال ماقد يشير إلى أنه قد سمع أو فهم..

قام الخادم متثاقلاً. رجع فقدَّم لنزال خبزاً وسمناً ودبساً وعاد إلى جلسته الأولى يحدق في فراغ المضارب والصحراء، فيما برودة الليل تزداد ثقلاً وإثقالاً.. وإذ التفت بنظرة عجلى، وجد نزالاً قد تدثر فروة تيس متآكلة وغط في نوم ثقيل، وشخر كبعير لم يكتمل ذبحاً.. فأطفأ السراج الوحيد في المجلس، واصطحب بندقيته وأحكم إغلاق طربال[1] الباب، وذهب ينام.

وصل الشيخ إلى المجلس مع أول خيط من الضوء، ووصل معه كبار العشيرة، يتبعهم الخَوي الكبير متمنطقاً حزاماً جلدياً بنياً متآكلاً فيه جيوب ملأى بالرصاص وعلى كتفه الأيمن علق بندقيته؛ أما الكتف الأيسر فيتدلى منه جراب فيه سيف لا يُعرف ما إذا كان بتَّاراً أم لا؛ وفي حزام خصره بين الخاصرة

---

[1] ـ *الطربال*: نسيج قماش سميك لا يخترقه المطر، تصنع منه الشوادر والخيام.

والسرة تظهر قبضة مسدس نمساوي أهديَ للشيخ زمن العثمانيين لخدمة أداها لسرية من الجند بالدلالة على اتجاه نجدٍ، وإرساله معها خوياً لم يرجع عنهم، وقيل آخاهم فأرسلوه إلى الأستانة مستشاراً للباب العالي[1] لما أبدى من الإخلاص للسلطنة وماكان عليه من خبرة لا تُجاري في تقصي الأثر ومعرفة بالصحراء قبائلَ وأفخاذاً ومساكن.. وقيل في أحاديث أخرى، إنهم بعدأن أوصلهم نجداً، قتلوه.

سأل الشيخ خويه عن وقت نوم الأخرس، كما سماه، فعاد الخوي بالسؤال إلى أصغر الخدم، ثم أجاب.

شاور الشيخ رهطه عن إيقاظ الأخرس؛ قيل نوقظه يا طويل العمر.

انحنى الخوي على النائم. هزه بغلظة مرتين فصحا ونشب واقفاً في زعرٍ باد.. وما كاد يستجمع وعيه حتى أقبل منحنياً على يمين الشيخ فقبل كتفه ثم لثم ظاهر الكف.

شرب الشيخ وصحبه قهوتهم. أمر فَصُبَّ لنزال بفنجان ثم أومأ. فطوَّح الخوي الفنجان..

مرت أيام الضيافة الثلاثة، ولم يفه نزال بحرف.. جرت محاولات كثيرة لتعرف حاجته دون جدوى..

في ضحى اليوم الأول من الأسبوع الثاني، قيل:

ـ يا شيخ، دعه يسرح ببعض غنمك مع السارحين.

استحسن الشيخ الرأي. بدا على نزال أنه قد فهم، فقد أقبل هاجماً على الشيخ يقبل عقاله وكتفه ثم ظاهري كفيه.

---

[1] – *__الباب العالي__: تسمية أطلقها السلاطين العثمانيون على رؤساء الوزارات عندهم.*

في الفجر اللاحق بدأ نزال يضرب مبتعداً عن المضارب إلى حيث الكلأ، بأغنام كثيرة وكلب وبعير واحد يمتطيه في الذهاب إلى المرعى وفي الإياب، ويسرحه مع الأغنام يأكل ويجترُّ ويمرح على هواه..

استمر نزال هكذا يوماً بعد يوم، شهراً في إثر شهر.

لم يدر نزال أن التجاءه إلى مضارب الشيخ كان نجَّاهُ لو أنه بقي في المضارب. لكن بقاءه في المضارب يعني أن يعمل ليس خادماً فحسب، بل أقل مرتبة في خدم الشيخ كلهم، كان عليه أن يأتمر لكل خوي وكل خادم، وإن نفسه تعاف هذا. ومن يدري فربما استاء أو تشاجر فسيضطر لأن تبدر منه كلمة تكشف أنه يسمع وأنه يتكلم.. فتكون طامة كبرى. هكذا كان ظن نزال.. ثم ماذا لو أنه باح بسره، من يدريه بأن الشيخ لا يسلمه.. لكنه لم يفطن إلى أن الشيخ، كغيره من شيوخ البادية، كان سيجيره وسيحميه لا حباً به، وإنما كي لا يقال في العرب إنه لم ينتخ، فما أجار وما حمى.. فتزول هيبة المشيخة ويصبح مضغة تلاك، وربما شعراً يُتغنّى به في الأماسي..

ذات يوم لمح نزال في مرمى النظر غباراً كثيفاً لم يتبين منشأه على التوّ. وحين اقترب الغبار عرف أن سيارة أثارته. حين اقترب الغبار أكثر، ودَّ نزال لو انشقت الأرض فالتهمته والسيارة ومن فيها من الدرك[1] والأغنامَ والجملَ والكلبَ جميعاً.. أطلق ساقيه للعدو أقصى ما يستطيع، يتبعه الكلب والجمل. الراكبون الثلاثة لم يترجلوا.. أوقفوا سيارتهم وأخذوا يضحكون.. إن الصيد صار إن لم يكن في الشبكة، فهو

---

(1) ـ *الدرك: تنظيم أمني لحفظ النظام في القرى والأرياف.*

في المرمى الآن.. إلى أين يا هذا الطريد؟ إلى أين؟؟ إن المدى مهما بَعُدَ، هو دون قدرتك على الهرب البعيد..

لك الله يا نزال.. لم يعد لك الآن، إلاَّ الله.

أجهده الجري. وقف يلهث. زمَّ عينيه. رأى السيارة في مكان وقوفها، تساءل: لِمَ لم يلحقوني**!!** وحير جواباً..

رَجَّ قلبه أن السيارة تحركت باتجاهه.. أناخ الجمل.. لمع في وهج الشمس ساقا جزْمة.. إن دركياً ترجَّل.. قال له بصوت أجشَّ واثق: تعال.. أقبل نزال خافضاً رأساً، رافعاً عينين كسيرتين. فتح الدركي مغارة فمه، زعم الفم أنه يبتسم. ترك نزال لجام الجمل وسار، صعد السيارة صامتاً.. وقفت السيارة قرب الأغنام. جفلت الأغنام برهة. فزعت ثم عادت إلى طعامها من عشب الأرض الأزغب.. أصعد دركي إلى السيارة كبشاً مفتول القرنين كالوعل. وانطلقت السيارة باتجاه الإسفلت.

اقشعَّرَ نزال..

خرَّ قلبه بين قدميه حين أمسك أحد الدركيين يمناه فلواها وأحكم فيها سوار حديد معلقاً بسوار آخر دسَّ له فيه يُسراه، وهو صامت سارح في ملكوت متلوِّن بالخوف وبالندم وبالذعر وبالتحدي، وبشيء من الراحة لم يعرف مثلها ويجهل أي سببٍ لها.. تذكّر لتوّه معصمي سناء وساعدي سناء وكتفي سناء، ثم برقت له رقبة سناء.

ـ يا ابن الكلب، سنة كاملة نجري وراءك في إثر إثرك.. تترك الهندسة ودعة المدينة وتتعاطى رعي الأغنام يا ابن الكلب.. إلى أين كنت تظن نفسك

هارباً؟؟.. إن يد الدرك طويلة، تصل إليك ولو كنت في أبعد سماء.. وها نحن صدناك كما يصطاد كلب جرب ولو كان مسعوراً.

دارت السيارة مائة وثمانين درجة ثم أوقِفتِ لأن أحد الدركيين قال:

ـ ألن يسألنا رئيس المخفر، ماذا أحضرتم لي؟

قال الثاني:

ـ حبذا لو أخذنا له الجمل فاقتسمه مع قائد الفصيل.

الثالث قال:

ـ وكيف نحمل جملاً في سيارتنا الجيب هذه؟

كان نزال يتابع الحوار.. نسي سناء فقال:

ـ تذبحونه وتجرونه بحبل، أليس معكم حبل؟

قال ثلاثتهم:

ـ من يقدر على ذبح جمل صحراوي؟ إن الكباش الصحراوية عصيَّة على الإمساك، فما بالكم بجمل، ونذبحه أيضاً؟؟ لا.. لا نستطيع.. .. والله إن أفلت برك علينا وعلى السيارة جميعاً فجعلنا عجيناً.

قال الذي أصفد نزالاً:

ـ إن مَن قَدِرَ على سناء، لن يعجزه جمل.

وقع قلب نزال. دخل انعدام الوزن هنيهة رجعت إليه فيها: سنوات دراسته الجامعية.. حديقة الجامعة، صحاب الجامعة، الطريق إلى الجامعة، وعده لسناء بالزواج وعش يملآنه أطفالاً ووروداً.. فاغرورقت عيناه بدمع غصَّ، غصَّ في المآقي، ما ظهر وما انحدر على خدٍّ من خديه البارزين ككثيب متشقق في الصحراء الموحشة.

رفع الدركي كفَّاً كخشبة وهوى بها على خد نزال، ثم أخرج من جيب سترته مفتاحاً أصغر من عينه الحولاء، وأدخله في صفد اليدين، وتابع في إزباد:

ـ انزل يا ابن القحـ[.....] أمسك الجمل واذبحه.

نظر نزال إلى الدركي نظرة أشبه بالبلهاء.. كانت ذكريات الجامعة ماتزال ماثلة تتراوحه كما يتراوح الوقت بندولٌ رتيبٌ في ساعة خشبية..

صار أمام الجمل. أمسك اللجام. عَيَّنَ في عينيه. توقف الجمل عن مضغ اجتراره الأثير. ثم أغرق عينيه في عيني ذابحه وفتح شدقه فتحة صغيرة كأنه يبتسم...لوى باتجاه نزال وهو في بَرْكَتِه، عنقاً رخياً سلساً كعنق زرافة ثم حناه أسفل فأعلى وشده باستقامة عن نحره، فبدا المنحر مستعداً لقدره المطلوب..هم الرجل ليفعل ما طلب منه. أمال السكين باتجاه رمل الصحراء. لامس بيسراه العنق الطويل ومسده بكف حنون كمن يلامس خد حبيب أو خد طفل وليد. أرخى اللجام وقفل إلى سيارة الدرك. حدق فيه صافِدُهُ بحدَّةٍ وصلف.. قال نزال:

ـ اذبحوني أنا إن شئتم.. لن أقدِر.

وتحدرت من عينيه دمعتان.. سمع أحداً يقول:

ـ اعتبره سناء.

ويردف:

ـ دموع التماسيح.. أتدعي عدم القدرة على ذبح بهيمة.. حقَّاً إنك لمكّار كبير.

لم يجب نزال بأن العشاق والمحبين لا يُميتون أحداً ولا يقتلون بل إنهم هم يموتون ويُقتلون هوىً وصبابة.

سمع كفَّاً كمرزبة تهوي على الخد المدمع. سمع،

ولم يتألم.. خرَّ على الرمل. ثم نهض رمحاً متكسراً.. فتلقى بصمت وألم، ركلة حذاء ضخم على فخذه.. بادل الركلة بنظرة تحدٍّ من عينيه الحمراوين كعيون الجن. تاهت منه العينان. غاص في الذكرى..

■■■

السيد سالم

أول ما رأى من حلب.. كان دوّار الصاخور[1]: بناسه، وبغاله، والباعة بعرباتهم التي يجرونها –لا آلة ولا حيوان- مليئة بالبرتقال أو الموز أو الخيار وغير ذلك من فاكهة أو خضروات أو آنية بلاستيكية ملونة، وبازدحامه بالمنادين إلى السفر.

انبهر سالم السلوم، كمن أخذته الصيحة.

استغرب أكثر ما استغرب ذلك العجّ من الرجال والنساء والأطفال المتزاحمين إلى سفر لجهات منها الوجهة التي غادرها.. تساءل بينه وبين نفسه كيف يتزاحمون ويترجّون ليعودوا من حيث أتوا. فهذه حلب التي ماردّت أحداً، بل جبرت خاطر كل قاصد.

كانت السيارة تواصل بحمْلها الصعب: المسافرين وأنعامهم وأطفالهم الباكين أو المتباكين مللاً أو ألماً من مرض ما.. حتى بلغت مقصدها: باب الحديد[2]، فاستكان ضجيجها وضجيج الراكبين. ترجل الجميع إلا سائقها ومعاونه الفظّ الذي نهر الركاب جميعاً طيلة الرحلة كأنه لم يعرف من الكلام في حياته إلا الشتائم؛

---

[1] *أول حي يلاقي القادم لحلب من جهة الشرق.*

[2] *ميدان شعبي من ميادين حلب.*

أربع ساعات من القرية إلى حلب وماكفَّ له زجر أو صياح أو شتيمة أو صفعة لولد.. حمداً لله فقد وصلنا أخيراً؛ فلنفارق هذا المتجبر الأخرق.. قال سالم ذلك عندما أصبح على مبعدة كافية من السيارة.

عبَّ سالم من هواء حلب. إن لهواء حلب رائحة أخرى. وإن للصباح فيها نكهة ميْس السنابل في العصاري. وإن للرزق فيها أبواباً كثيرة مُشرعة لكل قاصد..

منذ الغد، بل منذ اليوم إذا يسّر الله أعمل مع العتالين في "باب جنين"[1] حتى إذا انقضى عام - بل أقل- تكون لي عربة أبيع عليها مالذّ وما طاب مما يستهوي الحلبيين؛ ولن أجرها كالباعة الجهلة في الصاخور.. ستكون لي دابة تجرها فتريحني، وأنا أنادي على بضاعتي وأقبض الأثمان..

حادث سالم السلوم نفسه بهذا..

تقدم لا جهة من ميدان باب الحديد. استوقفه لحاف ممدود على الرصيف صفّت عليه تباعاً أشياء وأدوات متنافرة ومتآلفة في آن معاً، ووراءه امرأة تربعت بسوادها – لباساً وسحنة - وقد انهمكت في جدال مع مشترٍ يبدو أنه من أهل البادية حول مفتاح لقفل ليس معه. اشتد الجدال اختلافاً حول السعر، ثم عن نية المشتري إعادة المفتاح إذا لم يفتح القفل. تدخّل سالم معبراً عن استغرابه أن يشتري أحد مفتاحاً لقفل ليس معه فزجره المشتري. وإذ تحول إلى امرأة السواد المتربعة- وقد أخذت تُرضع في بلهِ هُرَةٍ هرمةٍ، ووليداً أصفر مزرقّاً كأنه ليمونة قطفت منذ سنة –وأردفَ:

---

[1] سوق شعبية قديمة متنوعة السلع.

- وماذا تخسرين إذا أعاده عندما لايتراكب مع القفل؟ ماذا يفعل به عندئذ؟

نهرته المرأة من وراء حجابها، فضرب كفاً بكف وقال:

- خيراً تعمل، شراً تلقى.. والله إنك لظالمة.

أبعدت المرأة رضيعها فصاح الرضيع. مالت إلى قبقاب أمامها ورمته به فأخطأته..

مضى ومعه استغرابه واندهاشه من الباعة والمشترين، بل ومن حلب نفسها، وعلى الأخص، أبواق السيارات التي لاتكفّ عن الصياح كأن جناً مسّها أو هو مقيم داخلها. وكيف يختلط الناس بالحديد، بغبار أسود، بالعدو، بالتأني، بالضوضاء، بقامات الرجال المتأنقين والنساء السافرات والمحجبات، ببسطات سلع متباينات على الأرصفة، برواح وغدوِّ عصافير لايعلم من أين تجيء ولا أين تروح، بأضواء كثيرة في واجهات المتاجر مع أن الوقت ضحى.. تالله ليكونن لي متجر مثل هذه المتاجر، بل أحسن منها إن شاء الله.. هل هذا كثير عليك ياربي وأنت الوهّاب بغير حساب..

..دَفَشَهُ خرج على جحش كان ينهق برتابة وبأنين.. فكاد يقع، لولا أن عاجل فاحتمى بمصطبة دكان.. تخيّل لو أنه ماكان عاجل، إذن لزحمه الجحش فدخل رأسه بزجاج واجهة المتجر.

لاح في الناحية المقابلة دخان شواء فتحسس جيباً خفياً في قميصه، أدخل كفه، لامس القطع النقدية، ثم شرع في عبور الشارع والرائحة الزكية تطوي الشارع كله، تلفُّ الناس والسيارات والإشارة الضوئية.. وسالم منجذب إليها. لكنه قبل أن يدخل في زخم الرائحة تسمّر.. اندفع ثم وقع كأن جبلاً دهم مؤخرته.. أحسّ

باندلاق سائل ساخن قليلاً بارد قليلاً على ظهره.. ثم تمشى الساخن البارد، إلى باطن ركبتيه في أناة التذ لها. شعر بنعاس حالم فنام دون أن يدري بأنه قد نام.

..حين صحا ظن نفسه في الجنّة. فهذه الحسناء – بزيها الأبيض كالطحين - حورية وُعِدَ بها منذ خلق الكون.

فُتح باب.. دخل اثنان: رجل وامرأة. فازدحمت الغرفة بعطر عبق ما شمّ مثله قط، ولاحدّثه أحد عن مثله قط.

فتحت المرأة فستق فمٍ كأنه قلب من اللوز واللؤلؤ:

- نحمد الله على أنك عدت لنا.

..رفع رأسه. بدا له الرأس ثقيلاً بوزن مئذنة. مدّ بصراً كحد مثقب.. تنهّد لحظة وقال:

- وأين كنت؟

قال الرجل الوسيم:

- لاعليك.. لا عليك إننا نحمده فعلاً.

لاقت عيناه عينيْ الحورية، فتبسّمت العيون:

- كنتَ في عالم، وأنتَ الآن في عالم ثان.

تلفت حواليه.. لم ير أنهار عسل وخمر، ولا أرائك يُتكأ عليها، ولا ولداناً يطوفون.. كاد أن يثقب السرير بسبابته ليتأكد من أنه لايحلم. أيقن أنه في مكان ما من حلب، لكنه لم يعرف أين، كما لم يعرف أن حورية الطحين ممرضة في المستشفى، ولا من تكون المرأة الوردة أو الرجل الوسيم، ولا مأتى العطر الذي ملأ المكان كله، ولا أن المكان محض غرفة.

أذن لمخيلته أن تطير به بعيداً.. حلم بالحورية تبذر

معه القمح وتتولى حلب الأغنام والماعز.. لا، لا.. سيبذر ويحلب عنها، فليس عليها إلا التفرغ له، تتمشط وتتزين النهار كله، حتى إذا كان الربع الثاني من الليل، تضاحكا معاً، ومارسا أموراً حميمة ودافئة. وحلم بالسرير يطير بهما معاً فوق غيوم ماخطرت على قلب بشر وما رأتها عين. وبأن هذا الرجل الوسيم كأنه المحافظ نفسه، يقول له نحمده على سلامتكم، كلما حطّ السرير من الرحلة خلف حدود المعلوم. وحلم بالمرأة الوردة تهش له وتبتسم كلما اكتحلت عيناه بها.

غير أن السيدة الفوّاحة، ردته من أحلامه السارحة عندما مدّت إليه بكف من شقائق النعمان والفل البهيج، ورقة نقد مطوية بأناقة واعتناء، وورقة عليها كتابة. أخذ سالم الورقتين ببراءة غراء رضية، تملاّهما طويلاً، قلّبهما. هم بإرجاعهما لكنه أمسك إذ سألته ما إذا كان قد قرأ المكتوب على الورقة قال:

- أيهما؟

قال الرجل:

- أيهما؟؟.. هذه بالطبع، فالثانية ورقة عملة ياسالم.

توشح وجه سالم بحمرة خجل رقيقة. إن سالم لايقرأ ولا يكتب، فهو أمي أباً عن جد. ولم يكن في حياته كلها قد رأى ورقة نقدية كهذه.. داخله فهم بأن لأهل حلب نقوداً غير التي يتداولون في القرية.

- النقود وفهمناها، والورقة كتابة، هل علي أخْذُهما؟

- بل تأخذ النقود هدية لك حلالاً زلالاً.

سألت المرأة بغنج باد:

- أنت لاتعرف الكتابة ياسيد سالم، ولا توقع أليس

كذلك؟

أحس باغتباط جم. كانت هذه هي المرأة الأولى التي يسمع من يقول له يا [سيد].. كم سعد.. وكم أعتز.. أحست المرأة كأنه طاووس. وقبل أن يجيب، استل الرجل المهيب الوسيم من جيب سترته علبة معدنية رقيقة فرفع غطاءها وأمسك إبهام سالم بجفاء، ومهر الورقة به. لم يُسمع لسالم صوت. لم يصدر عنه اعتراض. كما لم يصدر عنه استفسار.. فقد بشت أساريره. بدا ممتناً ومبتهجاً أشد الابتهاج، فهو يعلم أن قبض النقود يستلزم بالتأكيد بصمة أو توقيعاً.

وبينما الورقة وبصمة سالم السلوم تأخذان طريقهما للاستقرار في محفظة السيدة.. كان غمٌّ كثير قد غمر الممرضة الشابة، فهمت أن تقول شيئاً، لكن حلقها غص، فأغضت حزينة وكسيرة.

خرجت كف السيدة من محفظتها بورقة نقد تُشبه أو لاتشبه ما أعطته لسالم. إن سالم لايدري، لكنه رأى وسُرَّ سروراً عظيماً لما اعتبره جود المرأة وجود الرجل.

الممرضة ظلّت تريد أن تقول لسالم ماودّت قوله قبل أن يغصّ حلقها، إلا أنها لم تقله.. بان على المرأة الفواحة ظفر عظيم وهمّت تغادر. أراد سالم أن ينزل من سريره لوداعها. أدرك أنه لايستطيع. قال:

-تبّاً لك ياحلب.

ثم سحب ملاءة السرير فغطّى جميع وجهه.. وأخذ يبكي بصمت، وبذبول.

■■■

ذات ليلة من شباط

سمكة بحيرة الأحلام الممتدة من سراب الهاجرة إلى حقول القمح والذهب والبترول، ظلت تحاور البنت البدوية سنين وسنين –ربما مائتين، وربما أكثر- حتى غدت كل منهما تخاطب نفسها عندما تخاطب الأخرى.. ولم تكبر أيٌّ منهما عن قوس الطفولة. لكن الجميع يعرفون؛ ومنذ قديم الأزمنة؛ أن كلاً منهما مولودةٌ رمزَ طفولة أبديِّ النجوى، لايُغيّبه عمرٌ ولا تعصره هموم.. تتناجيان دون ماضٍ وقد ابتنت كل واحدة لنفسها الأمل نفسه، الحلم نفسه، وأيضاً الرغبة نفسها.. رغبةً بعالم آت من داخل المعاناة، مزهر بربيع لاينقضي وبشمس لاتغيب.. وبأن الغريب سيتجرّع الأشواك كلها ويلوذ بالخيبة المرة في بلاده البعيدة.

وفي ليلة ماكان فيها ضوء، ماكان فيها نسمة، ماكان فيه صوت.. اشرأبت السمكة. نظرت بعينيها الحمراوين نحو البنت البدوية.. أومأت البنت البدوية أن التنانين مُغْضَبة، وقد تربّصت بالعاشقين وبالقوافي والمقامات العريقة عراقة نيران المجوس والشرائع الأولى.. فتمطّت السمكة، وتمطّى معها نجم الصبح فأضاء المكان برق وبيلسان وصفصاف فراتي.. ثم

غادرت مصطخب الماء في البحيرة، نافضة عن جسمه الأثير: العوالق والأصداف الفارغة، فاعتنقت بها البنت البدوية اعتناق السيف بالرقبة، وأجهشتا معاً ببكاء صامت حارق حنون. كانتا خائفتين من شيء ما. شيء كالمعاصي أو أشدّ وطأة.

قالت البنت البدوية: خذيني إليهم، إنّهم أهلي.

قالت السمكة: تعاليْ إنهم أمهاتي وآبائي، فادْخُليني نذهب إليهم..

سرّحت البنت البدوية شعراً أصفر كاللهب. أغدقت عطور سالومي على النحر فسال إلى السّرة ثم توضّع مابين الخاصرتين. تعطّر المكان: الشاطئ والماء والنخل والشاطئ الآخر؛ واحتشدت جميعها بالابتسام.

وفيما كانت البنت تهم بدخول السمكة الغضّة.. تلت صلوات وابتهالات استعاد بها الليل شرف الصدّقين والشهداء، وانتصبت قناديل العنفوان والكبرياء مدججة بالشهامة. هلل الأقحوان الندي. علت الزغاريد.. فالليلة، تدخل بطن السمكة، كما دخل يونس بطن الحوت الكبير.

أقعت السمكة، ثم انتضت سيف البطولة وسرت من الرصافة إلى فيء المعتصم الشهم. شهقت عند الباب الدمويّ.. كان: النوارس، وعمال التنظيفات الطيبون، والجنود الشجعان، والرّضع، والعاهرون، وأبناء السبيل، والعسس الخبثاء، وفوّهات المدافع المتيقظة، وضفائر بنات رياض الأطفال، وصبيان الأزقّة، والأقحوان، وأسطحة المنازل، والساحات، والميادين، والأرصفة، والجسور، وأشجار الدفل والحور، والكتّاب الصادقون والمأجورون، ومحطات الكهرباء، ومواقع استخراج النفط، ومكاتب البريد،

والمرابــون، وبنـــات الهــوى، والباعـــة المســـتقرّون والجوّالـون، وطـاولات المقـاهي، والسـماورات، ودنـان الخمـر، والمقـامرون، والخمّـارون، ورجـال السـلطات الأربـع.. جميعهم كـانوا واقفين بالمرصـاد، غير آبهين ولا وجلين. والبنت البدوية لم تكن وجلـة؛ فقد مدّت في اتئاد نمرةٍ جريحـة، عينيهـا المشـوقتين من داخـل عينـيْ السـمكة. حـدجت المنظـر كلـه.. رأت فـي أفـق المشـهد غربانـاً مدلهمــة كــالغيوم، ســوداً كالغضـــب الربـــانيّ. تساءلت:

- أي قرصـــان تـربّص بحريتـك، يـامن تجـوع كـلّ عامٍ حين يعشب الثرى؟.. وأية أصوات هذه التي تنفجر فـي نسمات الصبح البهيّـة والنديّـة فستقر فـي كل قلـبٍ خليٍّ؟؟..

أغضت السمكة وجهاً حيياً وغاصت في الهم حتـى الذوبان..

كـان البحـر يسـكب زبـده علـى أقـدام بعـدد الرمـل والحصـى نبتـت علـى التـوّ لصـخرة كبيـرة عاصـرت الزمن كله.

والنهر الغادر اقتاد ضفيرة البنت البدوية، الصفراء كاللهــب الأقــدس، وألقاهـا داخــل البحــر، تعبــث بهــا الوحوش.

طفـت الضـفيرة علـى المـوج لحظـة.. تسللت تحـت المـوج لحظــة.. ثـم تضـاحكت بـين مـوجتين زرقـاوين كعينـيْ حلبـيّ أصـيلٍ، واستسلمت لهمـا.. غزالـة مجهـدة وسكنتْ. تاه الماء بهدوء ناسك بوذيّ وهو يحملها كمـا تحمل الفريسة إلى بيته الواسع داخل البحر.

جميــع الصــقور الأليفــة، والحبــاري، والأشــعار النبطيّــة، والجنــائن المعلّقــة فــي قصــور الصــحراء،

والحشائش الضارة والنافعة.. شهدت جميعها المشهد كله ولم تعترض، ما ندّت عنها نأمة، بل أثرت المشهد باشتراكها في الرقص الموتيّ. وقد زُعِمَ بأنها كانت متواطئة مع النهر والتنانين الكفرة.. كان لسكوتها صوت المواخير والمراحيض العامة!! لكن الصحارى ارتُجَّ عليها فغاصت في الخجل. أما النساك فاعتصموا في صومعات التقوى يأكلون من خبز السلطان ويضربون بسيوفهم المنكسرة كصبايا مغتصبات، وفيما بعد اعتصموا بالتكايا يمارسون رقص السماح ويقيمون حفلات الزار، ويبتهلون.. يبتهلون ويستغفرون ويبتهلون.

فجأة ــتلقّت البحر الضخم كزرافة، ثم قبع متوحّداً مع همّه. استظلّ بالدهور الغابرة أيام معاوية، وبكى كطفل غرير مجذوم؛ فحضر السلاطين وجوهاً آهلة بالفرح وبالأزمان، حالمين بأثداء النساء قطوفاً دانية وتهاليل ألق، وكراديس من رمان الطائف، من تين الشام، وكمثري بيروت.

قامت البنت من بطن السمكة.. تملّت في شبق الغرب القادم. صاحت بدلافين خليج العتمة.. ضاع الصوت ولم يسمع أحد شكواها، إلا الحوت.. بصق يونس وواساها، فخرّت وحيدة مسربلة بالدم الدافئ في المياه الدافئة، فاصطخبت الأغاني كالأناشيد، وتسرّب النهر إلى سردابه تحت الصخرة ذات الأقدام التي عَدَدَ الرمل والحصى.

اشرأبت السمكة. واشرأبت الضفيرة.

لم يلبث السرداب أن مار، ثم تهاوى، وهوى. فغاصت فيه البنت البدوية.

قالت الصخرة:

- نسي النهر أن يملأ السرداب.

فوجئ البحر بالانهيار. واصل بكاءه الغرير، ثم انتحب لأن جديلة أخرى كانت قد أخذت طريقها إلى الاستقرار في قاعه الصقيل.

■■■

السنبلة

في اليوم القائظ. في أول اليوم القائظ. رفعت السنبلة رأسها الصغير، وبعد أن تلفتت ذات اليمين تلفتت ذات الشمال ثم شرعت في الكشف عن ركبتها أمام العصفور الصغير.

ولأن العصفور الصغير لم يعرها اهتماماً باشرت خلع ملابسها الذهبية قطعة قطعة غير آبهة بالسنابل الذكور المجاورة، ولامتعظة بما حلّ في العام السابق من السحق المتكرر الذي لايرحم لكل سنبلة تعرّت؛ وإذ فرغت أخذت تغمز له بعينها الواحدة كأنها تدعوه إلى فعل؛ فلم يستجب.

زعمت في نفسها أنه لم يكن راغباً في الفعل الذي تدعوه إليه ذلك الوقت المبكر من النهار القائظ، حيث كان النوم الصعب آخذه كلّه، وحيث كل شيء كان مايزال يغط بالنوم العميق. بعضٌ من الكل شيءٍ كان يحلم بالارتياح، وبعضٌ يحلم باستباق الأيام إلى الشهور وبمياه الأنهار في سعيها الحثيث باتجاه البحر، وبعضٌ باستباق الشهور وبمياه الجداول في تشاغلها بالجريان فيما هي تسعى سعياً سريّاً لايعرف الكلل لكي تتسرب

إلى جوف الأرض، وبعضٌ آخر كان يتقلب في رقدته كاشفاً سيقانه ومافوق سرّته لشدة الحر، في اطمئنان ودعة.. أما البعض الكثير، فكان مستسلماً يحلم بانقضاء السنين ولايصحو إلا للصلاة. ذلك البعض هو الذي استوعب أن الغاية من الوجود كله هي العبادة تسبيحاً لربّ العباد آناء الليل وأطراف النهار.

وهكذا فإن السنبلة – وكانت ترى ذلك - أكملت عريها الصعب السهل الفاضح وغنّت للعصفور الصغير مايُعرف بأنه الأغنية الأولى، وحررت له التفاحة الوحيدة من سطوة الشجرة واستلقت تحتها..

ما كاد العصفور يهمُّ بالاقتراب – كان يريد أن يرى ما الذي يحصل ولماذا - حتى عالجته السنبلة واغتصبت قبلتها من منقاره المتورّد، فغضب غضباً عظيماً وأقسم أن يشكو أمرها للشمس، فإذا لم تنصفه شكاها للقمر، وإذا لم ينصفه هو الآخر اكتفى بالطلب إليه ألاّ يفسح مكانه لأي شمس راغبة في القدوم. وماهذا مطلب عزيز التلبية.

ملك الشجاعةَ قلبُ السنبلة، وفعل التحدي فعله فيها، فاستمسكت بقدميه وقالت له: لن تحلّق إلا وأنا معك.

غرس أظافره بقلبها تماماً وطار بجسمه وبروحه وبها، بعيداً بعيداً.. صارا في الجو.

نظر العصفور الصغير إلى جموع السنابل على الأرض فوجدها جميعاً مستلقية على البيادر وعلى جوانبها، تتزانى عصافير كثيرة كان قد سمع بأنه ستُقبلُ من مكان بعيد فترتاد الوطن وتفعل فيه ما تفعل. أحسّ بمرارة وبخزي شديد وبالعار يجلّله، فشدّ الأظافر

على السنبلة بكل مافيه من قوة ومن غيظ ومن انتخاء..

أما السنبلة فكانت تنظر إلى الأعلى تستعطي الصبر وتَحَمُّلَ مشقة ماهي عليه، لكنها لم تكن تحسّ بالهوان ولا حتى بالامتعاض لهذه الطريقة الفظّة التي اتبعها العصفور الصغير مع ولهي أرادت أن تمتّعه وأن تتمتع لحظة قبل وقت الحصاد القادم لا محالة قدراً سنوياً ماحقاً، لكنه معتاد.

توقف في الجو هنيهة.. استشعر في ذاته ذنباً لم يقترفه، فخجل خجلاً مابعده خجل، ودخل غيمة رقيقة فاغتسل تخلّص من آثام ماضية ومن إثم لم يرتكبه. وحين اغتسلت السنبلة أفلتها وأمرها أن تستر عريها فامتثلت صاغرة.. ثم توضأ كل منهما. قررا الذهاب إلى أقرب كنيسة لتعترف هي بذنبها، ويعترف هو بذنوب الآخرين.. لكنهما وقد وجدا نفسيهما وجهاً لوجه عجوزين بعد طول السفر في الفضاء الرحب، تراجع كل منهما عما انتوى.

عادت إلى تعرية ساقيها وكانا متشققين، طار صواب العصفور الصغير العجوز فأسلس لها منقاره الأحمر تقبّله تقبّله حتى ماتت.

لم يكن العصفور الصغير العجوز قد خبر الموت قبلاً، فاحتار فيما حصل، واستغرب أنها كفّت عن التقبيل.. كان قد وجد فيه لذّة عظمى عندما امتزج لعابه المالح بلعابها النشويّ حلو الطعم. فقد أعطاه لعابها شعوراً بشبع لم يشبع مثله يوماً قطّ.

هزها بمنقاره هزّةً.. هزّتين، لم تتحرك!. هزّها بأحد جناحيه، لم تتحرك!.. صفقها من الجانبين بجناحيه الاثنين، لم تتحرك!.. أحس بخيبة كبيرة، فبكا.. وبكت

معه غيمة رقيقة بكاءً لاصوت له. حملها بمنقاره الأحمر واستقبل الشمس البعيدة ليشكو لها ماحصل. لم يعد راغباً بشكواها. ولا بالشكوى منها.

غادر الأمكنة والغيوم العالية والأزمنة، حتى وقف على باب الشمس فقرعه مرات. دفعه مرات أكثر فما فُتح. ظل واقفاً بالباب أعواماً، كل عام مقداره ألف عام مما يعدُّ أو يزيد.. ومايزال، واقفاً بالباب كسيراً يهز السنبلة بجسمه كله هزاً متواصلاً لاينقطع.

■■■

الفهرس:

الإهــداء 3
عديله 5
الفراشـــة 11
كروان 20
الصوصاني والولد 26
جهــراء 36
موّال وفيقة 42
عنق الجمل 51
السيد سالم 60
ذات ليلة من شباط 66
السنبلة 71

■■■

رقم الإيداع في مكتبة الأسد الوطنية

مـــــوال وفيقـــــة: قصـــــص/ نبيـــــه شـــــعار– [دمشـــق]: اتحـــاد الكتـــاب العـــرب، 2000 – 93ص ؛20سم.

1- 813.01 ش ع ا م   2-813.009561 ش ع ا م

3- العنوان   4- شعار

ع- 2000/8/1355-   مكتبة الأسد

❑❑

هذا الكتاب

مجموعة قصصية تتناول موضوعات إنسانية، اجتماعية، وفردية، تجسد المجموعة وعي الكاتب ومواقفه من قضايا المجتمع والحياة، وهو وعي حر متقدم، كما أنه إسهام في تكوين وعي ينهض بمجتمعنا نحو حياة أفضل، كتبت المجموعة بلغة دقيقة في السرد الروائي وتتألق مع ماهو وجداني وإنساني، بعيدة عن التكلف مع تجديد في اللفظة والعبارة والصورة، وقدرة على التخيل الفني مع حرص على ألفاظ بيئية تفيد في الدلالة على شكل المكان والعادات وعلاقات الناس.

❒❒

